الفصل الثالث

حياتـــه الفكريـــة

وتحته المباحث التاليـــة :

المبـحث الأول : عقيدة الإمام الذهلي .

المبـحث الثـاني : إتجاهه الفقهي .

المبحث الأول
عقيدة الإمام الذهلي

إن معرفة عقيدة أي شخص أمر له أهمية قصوى، لأن العقيدة أمرها عظيم، وفي الحيدة عنها خطر جسيم، وكذلك لأنها أساس ومعيار لكل ما يصدر عن الشخص من الأعمال والأقوال والتصرفات بل والنوايا القلبية، لذا جاء التركيز في العهد المكي على ترسيخها في المفاهيم وفي الواقع، لتكون قاعدة ثابتة لا يطرأ عليها التغيير. .

وبهذا الترسيخ وبهذه الأهمية تلقى صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم مفاهيم العقيدة فحملوها في قلوبهم، وفي تعاملهم مع بعضهم، واعتزوا بها، حتى نشأت ناشئة زين لهم الشيطان أعمالهم، فحادوا عن هذه الثوابت، فبرزت الشيعة والخوارج أيام الخليفة علي ابن أبي طالب، وظهرت القدرية في أواخر عهد الصحابة، وبذر أهل الشقاق الذين لم يذوقوا طعم الإيمان ولم يتفيئوا في ظلال العقيدة الوارفة، بذور الفرقة والخلاف، فحذر منهم الصحابة وقاطعوهم وبدعوهم بل وكفروا أصنافاً منهم، وتبع التابعون ومن بعدهم الصحابة رضوان الله عليهم على هذا المنهج، وأحاطوا العقيدة بسياج منيع من الحفاظ والإهتمام، وضيقوا الخناق على من خرج عليها، ومن بدعوه أو رموه بمخالفة فهو الخاسر الهالك.

وإمامنا محمد بن يحيى الذهلي كان يعلم تلك الأهمية الكبرى للجهاد في سبيل الله الذي شرع ليكون فيصلاً بين الحق والباطل وليزيح الحواجز بين الناس في الدنيا وبين هذه العقيدة .

ولكنه تعلم من مشايخه وأساتذته أن الذب عن السنة المحمدية والحفاظ عليها جهاد كبير قد يفوق الجهاد بالسيف، لأن بقاء العقيدة واضحة بلجاء نقية

---

(١) السير ١٠/ ٥١٨.

أمام العالمين هو مهمة الأنبياء والمرسلين، وعندما تطمس أو يحال بين الناس وبينها تأتي مراحل الجهاد وتفرض في الواقع .

لذا لما سمع شيخه يحيى بن معين يقول: الذب عن السنة أفضل من الجهاد في سبيل الله، استعظم أن يفوق الجهاد أمر آخر، فقال لشيخه: الرجل ينفق ماله، ويتعب نفسه، ويجاهد فهذا أفضل منه!؟ قال: نعم بكثير (١) .

ولما لم يعقب على رأي شيخه دلّ سكوته على اقتناعه به، فنراه كما ذكر الأئمة شديد التمسك بالسنة وإظهارها .

ونراه دائماً مع أولئك الركب المبارك الذين شُهِدَ لهم بنقاء وصفاء العقيدة بل والإمامة فيها، ومن أولئك الفرسان الأشاوس الذين نافحوا عن حياضها بتقرير ما استقر عليه الاعتقاد، وبنسف قواعد المُحْدثِينْ في هذا الاعتقاد، والمزعزعين لاستقراره، وذلك بإعلان كونهم قد خالفوا وغيروا، ثم الأمر بهجرهم ومقاطعتهم حتى يتوبوا، وكذلك بمراسلة الأئمة والعلماء لمتابعة نشاطهم وتحركهم .

و لذلك وصفه الإمام ابن حبان بقوله: « كان متقناً من الجماعين للحديث والمواظبين عليه مع إظهار السنة وقلة المبالاة بمن خالفها» (٢) .

ويقول الذهبي: « . . . كان شديد التمسك بالسنة» (٣) .

وساق الإمام الحافظ أبو القاسم هبة الله اللالكائي أسماء عدد من الصحابة والتابعين ومن تبعهم في معظم النواحي والأصقاع، ممن رسم بالإمامة في السنة، والدعوة والهداية إلى طريق الإستقامة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم إمام الإئمة .

---

(١) السير ١٠ / ٥١٨ .
(٢) الثقات ٩/ ١١٥ .
(٣) السير ١٢/ ٢٨٤ .

وكان الإمام الذهلي عاشر [1] أحد وعشرين إماماً من أهل خراسان فيهم ابن المبارك ونعيم بن حماد وإسحاق بن راهويه ومحمد بن نصر ويحيى بن يحيى وأبو قدامة السرخسي وسواهم رحمهم الله.

ونورد فيما يلي موافقته لاعتقاد السلف في عدة مسائل:

أولاً: إعتقاده أن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية:

معلوم أن أهل السنة والجماعة يعتقدون أن الإيمان يزيد وينقص، وأن زيادته بالطاعة ونقصانه بالمعصية، لذا عقد الإمام اللالكائي سياقاً إستشهد فيه بالأيات والأحاديث الدالة على ذلك، وثنّى بأقاويل سلف الأمة من الصحابة والتابعين، ومن بَعْدَهم من علماء وأئمة الدين وذكر فيهم الذهلي. قال رحمه الله:

وبه قال: من الصحابة: . . . . . وعدَّد منهم ستة عشر صحابياً.

قال: ومن التابعين: . . . . . وعدَّد منهم ثمانية وعشرين تابعياً.

قال: ومن الفقهاء: مالك بن أنس و . . . و . . . . و . . . . و . . . وذكر ثلاثة عشر فقيهاً.

قال: ومن الطبقة الثالثة من البصريين : . . . . و . . . . . و . . . . . و . . . وذكر من كبارهم سبعة.

قال: ومن يليهم:

أحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، وأبو عبيد، ومحمد بن إسماعيل البخاري، وعبد الله بن عبد الرحمن السمرقندي، ومحمد بن يحيى الذهلي،

(١) شرح أصول إعتقاد أهل السنة والجماعة ١/ ٤٧ للإمام أبي القاسم هبة الله اللالكائي، تحقيق د. أحمد سعد حمدان. وقد أورد الإمام الذهبي في سيره ثناء ابن راهويه على يحيى بن يحيى النيسابوري بأنه: «أصبح إمام أهل الشرق والغرب» فعقَّب الذهبي بقوله: «قلت: لم يكن بخراسان بعده مثله إلا إسحاق ولا بعد إسحاق مثل الذهلي، ولا بعد الذهلي كمسلم ولا بعد مسلم كمحمد بن نصر المروزي، ولا بعد ابن نصر كابن خزيمة، ولا بعده كأبي حامد ابن الشرقي، ولا بعده كأبي بكر الصبغي». السير ١٠/ ٥١٩.

ومحمد بن أسلم الطوسي، وأبو زرعة، وأبو حاتم، وأبو داود السجستاني. . . الخ. (١)

ونقل عنه محمد بن نعيم قوله: «الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص. . . » (٢).

ومن اهتمام الإمام الذهلي البالغ بتقرير مثل هذه القضايا متابعته لها ونقله إياها عن مشايخ مشايخه وسواهم ومن ذلك نقله عن سفيان الثوري والأوزاعي رحمهما الله.

١- قال أحمد بن سعيد الثقفي* : نا محمد بن يحيى الذهلي قال نا أبو أحمد الزبيري قال: سمعت سفيان يعني الثوري غير مرة يقول: « الإيمان يزيد وينقص. . . ».

٢- وقال الثقفي أيضاً : نا محمد بن يحيى الذهلي قال نا فديك بن سليمان قال سئل الأوزاعي عن الإيمان فقال : « الإيمان يزيد وينقص، فمن زعم أن الإيمان يزيد ولا ينقص فهو صاحب بدعة » (٣).

(١) شرح أصول إعتقاد أهل السنة ٥/ ٨٩٤. وانظر قول أبي بكر ابن أبي شيبة في كتابه (الإيمان) ضمن أربع رسائل بإسم (من كنوز السنة) تحقيق الشيخ محمد ناصر الدين الألباني: (الإيمان عندنا قول وعمل يزيد وينقص) ص٤٦. وانظر الإيمان ومعالمه وسننه، واستكماله، ودرجاته: لأبي عبيد القاسم بن سلام، ضمن أربع رسائل بإسم (من كنوز السنة) تحقيق الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، باب (الزيادة في الإيمان والإنتقاص منه) ص٧٢، واستشهاده بأقوال سفيان والأوزاعي ومالك بن أنس وأنهم يرون أن أعمال البر جميعاً من الزيادة في الإسلام مستشهداً لهم بالآيات القرآنية. وانظر كذلك عقيدة ابن بطّة العكبري في (الإبانة الصغرى) الموافقة لعقيدة السلف (وهي أن الإيمان قول باللسان، وتصديق بالجنان، وعمل بالأركان، يزيده كثرة العمل والقول بالإحسان، وينقصه العصيان، وله أول وبداية ثم ارتقاء وزيادة بلا نهاية. .) الإبانة الصغرى والمسمَّاة (الشرح والإبانة على أصول السنة والديانة) للإمام عبيد الله بن محمد ابن بطّة العكبري، تحقيق د. رضا نعسان. ص١٧٧. وانظر تحفة الأحوذي للمباركفوري، شرح جامع الترمذي ٧/ ٣٥٤. بعناية عبد الرحمن محمد عثمان، وعبد الوهاب عبد اللطيف.

(٢) سير أعلام النبلاء ١٢/ ٢٩٠.

(*) لم أجد ترجمته.

(٣) شرح أصول إعتقاد أهل السنة ٥/ ٩٥٨.

ثانياً: عقيدته في استواء الله على العرش مع إحاطته وعلمه بكل ما في الكون.

يعتقد سلف الأمة من الصحابة والتابعين ومن تبعهم من الأئمة المحدثين، والفقهاء، والمفسرين، وأهل اللغة، والزهاد، وأئمة أهل الكلام أن الله فوق سماواته على عرشه كما قال تعالى: ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ [1]. وقد فصل هذا الإعتقاد إمام أهل السنة والجماعة الإمام أحمد بن حنبل فقال: « والماء فوق السماء فوق السماء العليا السابعة وعرش الرحمن عز وجل فوق الماء والله عز وجل على العرش . . . » [2]. ونقل الإجماع على ذلك غير واحد من الأئمة كاللالكائي [3]، وابن القيم [4]، والذهبي [5].

وقد جاء التصريح في القرآن الكريم باستواء الله على العرش سبع مرات، وجمع في ذلك ما ينيف على خمسين حديثاً تصرح بذلك بما لا يدع لطالب الحق مجالاً للشك [6].

ومع كل هذه البراهين وأقوال مئات ممن عقدت الأمة خناصرها عليهم ظهر هناك من ينفي استواءه سبحانه بل زاد الأمر خرقاً فقالوا: (ليس على العرش شيء سوى العدم، وإن الله ليس مستوياً على عرشه ، ولا ترفع إليه الأيدي، ولا يصعد إليه الكلم الطيب . .)الخ [7] وهم المعطلة والجهمية.

---

(١) سورة طه: الآية: ٥.

(٢) السنة للإمام أحمد ٧٤-٧٥، بتصحيح وتعليق الشيخ إسماعيل الأنصاري.

(٣) شرح أصول إعتقاد أهل السنة ٢/ ٣٨٧ - ٤٠٢.

(٤) إجتماع الجيوش الإسلامية، وهو كتاب أفرده مؤلفه لبيان هذه المسألة وسرد فيها الأدلة من الكتاب والسنة. ونقل فيها أقوال سلف الأمة الصالح من الصحابة والتابعين ومن تبعهم وأئمة الحديث والتفسير واللغة حتى الجن والنمل وحمر الوحش.

(٥) العلو للعلي الغفار، أفرده مؤلفه أيضاً لهذه المسألة ونقل فيه عن ثمانية وستين ومائة عالم من علماء السلف. وقد اختصره العلامة المحدث الألباني.

(٦) سيقت هذه الأحاديث في الكتابين السابقين وفي معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول في التوحيد للشيخ حافظ الحكمي ١/ ١٠٩ عند حديثه على صفة العلو والفوقية.

(٧) إجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية، لابن قيم الجوزية ص ٤٥.

وهنا يقرر الإمام الذهلي ما قرره الأئمة قبله من أن الله مستو على عرشه سبحانه عالياً على خلقه بائناً منهم، ومع ذلك هو معهم بعلمه يعلم أعمالهم ويسمع أقوالهم، ويرى حركاتهم وسكناتهم، لا كما تدعي الحلولية والجهمية وسواهم أنه في كل مكان ولا يخلو منه مكان بذاته[1].

سئل الإمام محمد بن يحيى الذهلي رحمه الله تعالى عن معنى آخر حديث النبي صلى الله عليه وسلم الذي رواه عبد الله بن معاوية الغَاضِري[2]. رضي الله عنه «. . . ليعلم العبد أن الله معه حيث كان»[3].

---

(١) وقد ناقشهم الإمام أحمد في عقيدتهم الباطلة فقال: قد عرف المسلمون أماكن كثيرة ليس فيها من عظمة الرب شيء. فقالوا: أي مكان؟ فقال: أجسامكم وأجوافكم وأجواف الخنازير والحشوش، والأماكن القذرة ليس فيها منْ عظمة الرب شيء وقد أخبرنا أنه في السماء. قال تعالى: ﴿ءأمنتم من في السماء. .﴾ (الملك: آية: ١٦). وقال تعالى ﴿إليه يصعد الكلم الطيب. .﴾ (فاطر: آية: ١٠). وقال تعالى: ﴿بل رفعه الله إليه﴾ (النساء: آية: ١٥٨).
وأفلس ما في عقولهم المظلمة من معان رخيصة بالية إذ فهموا من قوله تعالى: ﴿وهو الله في السموات والأرض﴾ (الأنعام: آية: ٣)، أنه في كل مكان في السماء وفي كل مكان في الأرض، فأتى على بنيانهم من القواعد وبين أن المعنى ما تهدي إليه الفطرة وهو (إله من في السموات، وإله من في الأرض، وهو على العرش، وقد أحاط علمه بما دون العرش، ولا يخلو من علم الله مكان ولا يكون علم الله في مكان دون مكان فذلك قوله تعالى: ﴿لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما﴾ (الطلاق: آية: ١٢). وضرب لذلك مثالاً قوياً: فقال: لو أن رجلاً كان في يديه قدح من قوارير صاف وفيه شراب، كان بصر ابن آدم قد أحاط بالقدح من غير أن يكون ابن آدم في القدح، فالله وله المثل الأعلى قد أحاط بجميع خلقه، من غير أن يكون في شيء من خلقه. . أ. هـ بتصرف من الرد على الجهمية والزنادقة للإمام أحمد بن حنبل. من ١٣٥ - ١٣٧، تحقيق د. عبد الرحمن عميرة.

(٢) هو عبد الله بن معاوية الغَاضري، من غَاضرة بن قيس. صحابي نزل حمص روى عنه جبير بن نفير، له حديث واحد. الطبقات الكبرى ٧/ ٤٢١. الآحاد والمثاني ٢/ ٣٠٠، الإصابة ٦/ ٢٢٠.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الزكاة باب في زكاة السائمة. (٢/ ٢٣٩). قال: قرأت في كتاب عبد الله بن سالم - بحمص عند آل عمرو بن الحارث الحمصي: عن الزبيدي قال: وأخبرني يحيى بن جابر عن جبير بن نفير عن عبد الله بن معاوية الغاضري مرفوعاً إلى قوله صلى الله عليه وسلم «. . . لم يأمركم بشَرِّه» بسند رجاله ثقات لكنه منقطع بين يحيى بن جابر وجبير بن نفير - وقد وصله البخاري في التاريخ الكبير ٥/ ٣١. والبيهقي في السنن الكبرى ٤/ ٩٠. وابن حجر في الإصابة ٦/ ٢٢٠ كلهم عن يحيى بن جابر أن عبد الرحمن بن جبير بن نفير حدثه أن أباه حدثه به وزاد. . «وزكى نفسه فقال رجل: وما تزكيته النفس؟ فقال: أن يعلم أن الله عز وجل معه حيث كان». وكذا أورده العلامة الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ٣/ ٣٨.

فقال رحمه الله: « يريد أن الله علمه محيط بكل ما كان والله على العرش»[1].

ومن بيان الإمام الذهلي هذا لمراد رسول الله صلى الله عليه وسلم، نلمس تقريره لمعتقد سلف الأمة من الصحابة والتابعين ومن بعدهم في أمر استواء الله عز وجل على العرش استواءاً حقيقياً يليق بجلاله وعظمته، ومع هذا الاستواء فعلمه جل شأنه محيط بكل شيء في السموات والأرض[2].

---

(١) مختصر العلو للعلي الغفار، للإمام الذهبي، ص٢٠١، وانظر معارج القبول للحكمي ١/ ١٥١.

(٢) قال أبو الحسن الأشعري بعد رجوعه لمذهب السلف . . ليس استواءه على العرش استيلاءً، كما قال أهل القدر، لأنه عز وجل لم يزل مستولياً على كل شيء، وأنه يعلم السر وأخفى من السر، ولا يغيب عنه شيء في السموات والأرض، حتى كأنه حاضر مع كل شيء، وقد دلَّ الله عز وجل على ذلك بقوله: ﴿وهو معكم أينما كنتم﴾(الحديد: آية٤). وفسر ذلك أهل العلم والتأويل أن علمه محيط بهم حيث كانوا. رسالة إلى أهل الثغر ٢٣٤.

وقد نقل الإمام ابن تيمية أقوال عدد من أئمة السلف في هذا الصدد منهم الشيخ أبو نصر السجزي في كتابه الإبانة قال: «وأئمتنا كسفيان، ومالك بن أنس، وسفيان بن عيينة، وحماد بن زيد، وحماد بن سلمة وعبد الله بن المبارك، وفضيل بن عياض، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن إبراهيم الحنظلي متفقون على أن الله سبحانه وتعالى بذاته على العرش وأن الله بكل مكان.

ومنهم أبو عمرو الطَلَمَنْكي في كتابه (الوصول إلى معرفة الأصول قال: و أجمع المسلمون من أهل السنة على أن معنى قوله تعالى: ﴿وهو معكم أينما كنتم﴾ (الحديد: آية: ٤) ونحو ذلك من القرآن أن ذلك علمه، وأن الله فوق السموات بذاته مستو على عرشه كيف شاء. بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية أو نقض تأسيس الجهمية ٢/ ٣٨، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تصحيح محمد بن عبد الرحمن بن قاسم. قال ابن تيمية (وليس معنى قوله ﴿وهو معكم. .﴾ أنه مختلط بالخلق فإن هذا لا توجبه اللغة، وهو خلاف ما أجمع عليه سلف الأمة، وخلاف ما فطر الله عليه الخلق، بل القمر آية من آيات الله من أصغر مخلوقاته، وهو موضوع في السماء وهو مع المسافر وغير المسافر أينما كان. العقيدة الواسطية ص ١٢٩ - ١٣٠ مع شرحها للدكتور الفوزان.

وقال العلامة الألباني: (وأما قول العامة وكثير من الخاصة : الله موجود في كل مكان، أو في كل الوجود ويعنون بذلك ذاته، فهو ضلال بل مأخوذ من القول بوحدة الوجود، الذي يقول به غلاة الصوفية الذين لا يفرقون بين الخالق والمخلوق ويقول كبيرهم: كل ما تراه بعينك فهو الله!! تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً. سلسلة الأحاديث الصحيحة ٣/ ٣٨.

ثالثاً: موقفه من الخوارج.

قال عن إسماعيل بن سميع[1]: «كان بيهسياً[2]، كان ممن يبغض علياً»[3].

وعند مراجعة أقوال العلماء في إسماعيل نجده في مرتبة الصدوق، وهناك من وثّقه كما سيأتي في مبحث الجرح والتعديل، ولكن الأئمة ومنهم الذهلي أشاروا إلى بدعته، وانتمائه لأبي الهيصم البيهسي. وهذا وفرقته خرجوا عن طريق السلف في عدة أمور. لذا زاده الذهلي بياناً وصنفه مع الخوارج على العموم وهم مبغضوا علي، وصنفه في الخصوص مع البيهسية منهم.

---

(١) هو إسماعيل بن سميع الحنفي أبو محمد الكوفي. بيَّاع السابري. اشتهر بهذه النسبة لنوع من الثياب يقال لها السَّابريَّة. روى عن مالك بن عمير وأبي رزين وعنه شعبة والثوري. قال أحمد: ثقة، وتركه زائدة لمذهبه. وقال ابن معين: ثقة مأمون. وقال أبو نعيم: إسماعيل بيهسي جاور المسجد أربعين سنة لم ير في جمعة ولا جماعة وذكره ابن حبان في الثقات، وقال البخاري: أما في الحديث فلم يكن به بأس. تهذيب التهذيب ١/ ٢٦٦، الأنساب ٣/ ١٩٤.

(٢) البَيْهَسية إحدى فرق الخوارج وهم أتباع أبي بيهس الهيصم بن جابر، وكان الحجاج قد طلبه فهرب إلَى المدينة، فطلبه بها عثمان بن حبان المزني فظفر به وحبسه. وكان يسامره إلى أن ورد كتاب الوليد بأن يقطع يديه ورجليه ثم يقتله ففعل. ومن عجائب أمره أنه كفر إبراهيم وميمون في إختلافهما في بيع الأمة. وبرئ من الواقفيَّة لقولهم إنا نقف فيمن واقع الحرام وهو لا يعلم أحلالاً واقع أم حراماً، قال: كان من حقه أن يعلم!!.

والإيمان عنده: هو أن يعلم كل حق وباطل، وأن الإيمان هو العلم بالقلب دون القول والعمل، ومن فرق البيهسية قوم يقال لهم العونية. وهم فرقتان اجتمعتا على أن الإمام إذا كفر كفرت الرعية الغائب منهم والشاهد. وقال بعض البيهسية: إن واقع الرجل حراماً لم يحكم بكفره حتى يرفع أمره إلى الإمام الوالي ويحده، وكل ماليس فيه حد فهو مغفور. وهم فرق كثيرة: منهم أصحاب التفسير. زعموا أن من شهد من المسلمين شهادة أخذ بتفسيرها وكيفيتها. ومنهم أصحاب السؤال ومن أقوالهم أن أطفال المؤمنين مؤمنين. الملل والنحل لأبي الفتح محمد ابن الشهرستاني ١/ ١٢٥، تحقيق محمد سيد كيلاني.

وقال ابن حجر العسقلاني: «أبو بيهس وهورأس فرقة من طوائف الخوارج من الصفرية وهو موافق لهم في وجوب الخروج على أئمة الجور، وكل من لا يعتقد معتقدهم عندهم كافر...» تهذيب التهذيب ١/ ٢٦٧.

(٣) تهذيب التهذيب ١/ ٢٦٧.

رابعاً : عقيدته في رؤية الله جل جلاله.

ذكر الإمام الحاكم أبو عبد الله الإمام الذهلي ضمن «فقهاء الإسلام أصحاب القياس والرأي والاستنباط والجدل والنظر» ومما استشهد به على فقهه في الحديث ما يلي :

قال : وسئل محمد بن يحيى عن اللفظة في الحديث هل رأيت الله؟ فيقول : ما ينبغي لأحد أن يرى الله تعالى ، فقال : «هذا في الدنيا فأما في الآخرة فإن أهل الجنة ينظرون إلى الله تعالى بأبصارهم»(١) .

---

(١) الحاكم معرفة علوم الحديث ص٧٣ . وهذا الاستدراك والتقييد من الذهلي رحمه الله تعالى في الإطلاق بأنه لا ينبغي لأحد أن يرى ربه تعالى دليل فقهه وسلامة معتقده «فإنه لا يقول أحد برؤية الله عز وجل في الدنيا» ولكن في الآخرة فإن أهل السنة والجماعة يثبتون رؤية المؤمنين لله عياناً بياناً رؤية حقيقية ، وردَّت هذا الجهمية والمعتزلة والخوارج وسواهم ، فما أحرى من لا يؤمن برؤية الكريم أن يحجب عنه ، ويا لفداحة الخسارة ، . انظر فتح الباري ١٣/ ٤٢٦ ، والتوحيد لابن خزيمة ١/ ٤٠٦ .

وقد استدل أهل السنة والجماعة على إثبات ذلك بالآية الكريمة ﴿وجوه يؤمئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾ (القيامة ٢٢/ ٢٣)

وبقول الله تعالى : ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾ (يونس آية : ٢٦) ، وقوله تعالى : ﴿كلا إنهم عن ربهم يؤمئذ لمحجوبون﴾ (المطففين ١٥) واستدلوا بأحاديث كثيرة منها ما أخرجه البخاري في صحيحه بسنده إلى جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال : كنا جلوساً عند النبي صلى الله عليه وسلم إذ نظر إلى القمر ليلة البدر قال : (إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته ، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس ، وصلاة قبل غروب الشمس فافعلوا) . صحيح البخاري ٨/ ٢٢٦ كتاب التوحيد باب قول الله تعالى ﴿وجوه يومئذ ناظرة﴾ ، ومنها ما استشهد به الحافظ محمد بن يحيى ابن أبي عمر العدني رحمه الله في كتابه الإيمان باب في كلام الله عز وجل ورؤيته يوم القيامة ص ٨٩ ، فقد ساق سنده إلى عدي بن حاتم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ما منكم من أحد إلا سيكلمه الله ، ليس بينه وبينه ترجمان ، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم . . . . . الخ) الحديث .

فالكلام مع الله عز وجل بدون ترجمان يقتضي أن يكون بالرؤية عقلاً وفطرة ، وقد أورد الترمذي هذا الحديث في سننه وقال بعده «حدثنا وكيع يوماً بهذا الحديث عن الأعمش ، فلما فرغ وكيع من هذا الحديث ، قال : من كان ها هنا من أهل خراسان فليحتسب في إظهار هذا الحديث بخراسان لأن الجهمية ينكرون هذا» (سنن الترمذي كتاب صفة القيامة باب في القيامة ٤/ ٥٢٨) . =

خامسا : عقيدته في القرآن الكريم ومواقفه الصلبة ممن غير وبدل من أصحاب الفرق .

لقد أحدثت فتنة القول بخلق القرآن صدعاً كبيراً في المجتمع الإسلامي آنذاك، وشتتت صفوف الأمة وذهب الناس فيها مذاهب شتى، فأولهم أهل السنة والجماعة الذين ذهبوا مذهب الحق، وأنه كلام الله منزل غير مخلوق ويتلوهم المعتزلة الذين أشعلوا هذه الفتنة، وادعوا أن القرآن مخلوق، ولم تثبت لهم في ذلك أي دعائم أو قواعد وجاء بعدهم الواقفية الذين يقفون فلا يقولون مخلوق ولا غير مخلوق ، وآخرهم اللفظية وسيأتي الكلام عنهم .

والإمام الذهلي رحمه الله من ذلك الركب المهتدي بهدي الكتاب والسنة فلا يصدر إلا عنهما، وقد أثر عنه في هذه المسائل مواقف صلبة قوية ترد كل ما أحدث وزيد، وتثبت ما استقر عند سلف الأمة من أمر هذه العقيدة التي لا تقبل التميع والإلتواء .

المسألة الأولى : قوله بأن القرآن كلام الله غير مخلوق وتكفيره من قال إنه مخلوق.

شهد الإمام اللالكائي لخمسمائة وخمسين نفسًا أو أكثر من التابعين وأتباع التابعين، والأئمة المرضيين سوى الصحابة الخيرين على اختلاف الأعصار ومضي

= وقد ذكر ابن خزيمة في توحيده عدة أبواب يستهلها بتقرير منهج أهل السنة من ذلك قوله باب ٤٣ : «ذكر البيان أن الله عز وجل ينظر إليه جميع المؤمنين يوم القيامة برهم وفاجرهم وإن رغمت أنوف الجهمية المعطلة المنكرة لصفات خالقنا» (التوحيد ١/ ٤٠٦).

وفي باب(٤٤) بين أن رؤية المنافقين والفجار رؤية إمتحان قبل أن يوضع الجسر بين ظهراني جهنم، ورؤية المؤمنين رؤية فرح وسرور وتلذذ (١/ ٤٢٠)، وقد أطال رحمه الله في الاستشهاد لذلك من السنة .

وأورد اللالكائي عقيدة ابن جرير الطبري ومن جملة قوله : «وأما الصواب من القول لدينا في رؤية المؤمنين ربهم يوم القيامة وهو ديننا الذي ندين لله به وأدركنا عليه أهل السنة والجماعة، فهو أن أهل الجنة يرونه على ما صحت به الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وانظر في ذلك تفسير ابن كثير عند تفسيره قوله تعالى : ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار﴾ (سورة الأنعام: ١٠٣)

وانظر إثبات ابن تيمية لذلك في العقيدة الواسطية ص٧٩ وشرحها للدكتور صالح الفوزان .

السنين والأعوام بأنهم قالوا: القرآن كلام الله غير مخلوق ومن قال مخلوق فهو كافر.

وذكر إمامنا الإمام الذهلي وابنه في أول من ذكر من أهل نيسابور وبخارى وسمرقند. قال: يحيى بن يحيى النيسابوري، وأحمد بن النضر النيسابوري، ومحمد بن يحيى الذهلي.

. . . ثم ساق أسماء خمسة عشر عالماً وإماماً فيهم ابنه يحيى (حيكان)[1].

المسألة الثانية: قوله بأن الأمر في قوله تعالى: ﴿ألا له الخلق والأمر﴾[2] هو القرآن الكريم.

نقل الإمام اللالكائي عن سعيد بن نصير أبو عثمان الواسطي أنه قال في مجلس خلف ابن هشام البزاز: «سمعت ابن عيينة يقول: ما يقول هذا الدويّة[3]- يعني بشر المريسي؟.

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ١/ ٣١٠- وكان اللالكائي رحمه الله قد ساق للاستشهاد على هذه المقولة الخطيرة عدداً من آيات الكتاب العزيز تفسر أو تدل على أن القرآن كلام الله غير مخلوق ثم ثنى بما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم مما يدل على ذلك، ثم ساق ما روي من اجماع الصحابة عليه أيضاً. ثم إجماع التابعين من مكة المكرمة والمدينة المنورة والكوفة والبصرة بأسمائهم، ثم أورد حشداً من أتباع التابعين على طبقاتهم المتفاوتة من شتى البلدان- ثم أقاويل جماعة منهم من الفقهاء المشهورين في عصر واحد ثم أقوال التابعين من أهل المدينة وعرج على الطبقات التي تليهم من مكة المكرمة، والبصرة، وواسط، والشطوط، وبغداد، وأهل الشام والثغور والعواصم وأهل مصر، وأهل الري ومن كور الجبال أهل أصبهان، وأهل خراسان وجماعة من البلخيين وأخيراً أهل نيسابور وبخارى وسمرقند» وبعد سياقهم أجمعين قال: وفيهم نحو من مائة إمام ممن أخذ الناس بقولهم وتدينوا بمذاهبهم، لا ينكر عليهم أحد، ومن أنكر قولهم استتابوه أو أمروا بقتله أو نفيه أو صلبه. راجع كل ذلك في الجزء الأول من كتابه من ص٢١٦-٣١٢.

(٢) سورة الأعراف آية (٥٠).

(٣) الدوية صفة للرجل المريض واللفظة من باب دوي يدْوَى دَوىً فهو دَوٍ إذا هلك بمرض باطن. ورجل دَوٍ بكسر الواو، أي فاسد الجوف من داء، وامرأة دَوِيَةٌ. وإن قلتَ: ورجل دوىً استوى فيه المذكّر والمؤنث. وقال ابن سيده: والدَّوى الأحمق. وَدوي صدره أي ضغن. انظر لسان العرب ١٤/ ٢٧٩.

قالوا : يا أبا محمد ابن (أبي) عمران : القرآن مخلوق .

قال : فقد كذب . قال الله عز وجل : ﴿ألا له الخلق والأمر﴾ فالخلق خلق الله والأمر القرآن الكريم .[1]

قال اللالكائي : «وكذلك قال أحمد بن حنبل ، ونعيم بن حماد ، ومحمد بن يحيى الذهلي ، وعبد السلام بن عاصم الرازي ، وأحمد بن سنان الواسطي ، وأبو حاتم الرازي»[2] .

المسألة الثالثة : حكمه على الواقفية[3]، وموقفه منهم.

قال محمد بن يحيى الذهلي : من وقف في القرآن فمحله محل من زعم أن القرآن مخلوق»[4] .

---

(١) قال الإمام القرطبي في تفسيره : قال ابن عيينة : فرَّق الله بين الخلق والأمر ، فمن جمع بينهما فقد كفر ، وفي تفرقته بين الخلق والأمر دليل على فساد قول من قال بخلق القرآن . الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٢٢٢) . وقال الإمام الشوكاني في تفسيره : الخلق : المخلوق ، والأمر : كلامه ، وهو كن . . . ، وأخرج ابن أبي حاتم عن سفيان بن عيينة في قوله ﴿ألا له الخلق والأمر﴾ قال : الخلق ما دون العرش ، والأمر ما فوق العرش . وأخرج ابن أبي حاتم والبيهقي عنه قال : الخلق هو الخلق ، والأمر هو الكلام . فتح القدير ٢/ ١١٢-٢١٣ . والقرآن الكريم من كلام الله ، ولعل تخصيص ابن عيينه الأمر بالقرآن الكريم من باب التغليب في واقع الحال في تلك الفترة الحرجة في حياة الأمة الإسلامية ، لتطاول الفرق المنحرفة على كتاب الله وتشكيكها في مصدره مع أنه محفوظ بكفالة الله .

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة ١/ ٢١٩ عند سياقه ما ورد في القرآن من الآيات الدالة على عدم خلق القرآن .

(٣) الواقفية : هم الذين يقفون في القرآن فلا يقولون مخلوق ولا غير مخلوق . انظر الرد على الجهمية للدارمي ص ١٦٧ وشرح اعتقاد أهل السنة ٢/ ٣٢٣-٣٢٩ .

(٤) شرح أصول اعتقاد أهل السنة ١/ ٣٢٨ . - وقد ذكر اللالكائي ذلك عند سياقه ما روي في تكفير من وقف في القرآن شاكاً فيه : أنه غير مخلوق . وقد شدد السلف الصالح رضي الله عنهم في مسألة الوقف ، لأنها تدل على التميع في الاعتقاد ، وأغلبهم يتسترون بذلك بالقول بخلق القرآن كما قال عبد الله ابن أبي سلمة العمري المدني- نزيل بغداد ، لما سئل عمن يقول : أن القرآن غير مخلوق؟ فقال : إن الذي لا يقول : إنه غير مخلوق فهو يقول مخلوق إلا أنه جعل هذه سترة يستتر بها . شرح أصول الاعتقاد ١/ ٣٢٥ .
وهذه القضية واضحة بلجاء لمن صفت فطرته وطلب الحق ، لذا شدد الأئمة على الواقفة لأنهم يفتحون جبهة متوسطة غير واضحة .

وقال: «ومن وقف فقال: لا أقول مخلوق ولا غير مخلوق، فقد ضاهى الكفر»[1].

المسألة الرابعة: حكمه على اللفظية[2] وموقفه منهم.

نقل الإمام اللالكائي عن محمد بن أسلم الطوسي[3] قال: إن من قال بأن القرآن يكون مخلوقاً بالألفاظ فقد زعم أن القرآن مخلوق.

قال اللالكائي: وعن محمد بن يحيى الذهلي مثله: وقال: هو مبتدع وأمر بمباينته ومجانبته[4].

وقال في موضع آخر: ومن زعم لفظي بالقرآن مخلوق فهو مبتدع لا يجالس ولا يكلم[5].

والذهلي هنا رحمه الله نراه قد شفع حكمه على اللفظي بالرادع والزاجر الفعلي وهو عدم المخالطة والمجالسة ووجوب المجانبة والمباينة.

وأختم حديثي عن عقيدته في القرآن الكريم وموافقته في ذلك لأعلام وأئمة الدين، ومواقفه من أصحاب المذاهب الشاذة الباطلة كالمخلوقية والواقفية واللفظية وسواهم؛ أختمه بنصين يبين فيهما بلسانه معتقده بصراحة تامة في هذه الأمور الخطيرة.

---

(١) السير ١٢/ ٤٥٥-٤٥٦.

(٢) اللفظية: هم من يقولون لفظي بالقرآن مخلوق، ولا يريدون بذلك حركة المرء وتلاوته للقرآن وإنما يريدون الملفوظ وهو كلام الله تعالى وقد تسترت الجهمية بهذه المقولة لتبرز عقيدة خلق القرآن الباطلة، وذلك لما أخمدها الإمام أحمد رحمه الله.
وانظر الفصل الخاص بعرض هذه المسألة في هذه الرسالة وهي مسألة الاختلاف في اللفظ.

(٣) هو محمد بن أسلم بن سالم أبو الحسن الكندي الطوسي، سمع يزيد بن هارون، ويعلى بن عبيد، قال محمد بن رافع: دخلت على محمد بن أسلم فما شبهته إلا بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، مات سنة ٢٤٢ بنيسابور. السير ١٢/ ١٩٥.

(٤) شرح أصول اعتقاد أهل السنة ١/ ٣٥٢.

(٥) السير ١٢/ ٤٥٥-٤٥٦.

النص الأول :

قال أبو حامد ابن الشرقي : سمعت محمد بن يحيى الذهلي يقول : «القرآن كلام الله غير مخلوق من جميع جهاته ، وحيث تصرف ، فمن لزم هذا إستغنى عن اللفظ ، وعما سواه من الكلام في القرآن ، ومن زعم أن القرآن مخلوق فقد كفر ، وخرج من الإيمان ، وبانت منه إمرأته ، يستتاب فإن تاب وإلا ضربت عنقه ، وجعل ماله فيئاً بين المسلمين ولم يدفن في مقابرهم ومن وقف ، فقال : لا أقول مخلوق ولا غير مخلوق ، فقد ضاهى الكفر ، ومن زعم لفظي بالقرآن مخلوق فهو مبتدع لا يجالس ولا يكلم . . الخ[1] .

النص الثاني :

وقال محمد بن نعيم : سمعت محمد بن يحيى الذهلي يقول : «الإيمان قول وعمل ، يزيد وينقص ، والقرآن كلام الله غير مخلوق بجميع جهاته ، وحيث تصرف ولا نرى الكلام فيما أحدثوا فتكلموا في الأصوات والأقلام ، والحبر والورق ، وما أحدثوا من المَتْلِيِّ والمُتْلَى والمُقْرئ ، فكل هذا عندنا بدعة ، ومن قال أن القرآن محدث فهو عندنا جهمي ، لا يشك فيه ولا يمترى»[2]

من النصوص السابقة نلمس مدى شدة الإمام الذهلي على المعتزلة ومن سار في فلكهم من المخالفين لمنهج السلف الصالح في الإعتقاد ، مترسماً بذلك هدي النبي صلى الله عليه وسلم وهدي أصحابه في الأخذ على أيدي المارقين ووصد جميع المنافذ عليهم .

وكان منهجه في هذا البيان يقوم على أمرين متلازمين ؛ الأول : وهو قولي ، البيان الصريح للمنهج الحق وتكفير أو تخطئة أو تبديع المخالفين حسب مخالفتهم .

---

(١) السير ١٢/ ٤٥٥-٤٥٦ .

(٢) السير ١٢/ ٢٨٩ ، قال الذهبي رحمه الله تعالى (كذا قال : المَتْلِيُّ والمُتْلَى ، ومراده المَتْلِي والتلاوة ، والمُقرئ والقراءة) . المصدر السابق ١٢/ ٢٩٠ .

و الثاني وهو فعلي، الأمر بالمجانبة والمباينة وما يتبع ذلك من طلاق أو إقامة حد القتل، وتفريق مال المخالف على المسلمين وكذا دفنهم بعيداً عن مقابر المسلمين إن كان ما أتوا به مخرجاً من الملة.

ومن هذا العرض الموجز لأقواله في بعض مسائل العقيدة ندرك مدى موافقته لسلف الأمة ـ من الصحابة والتابعين ومن تابعهم ـ في قضايا العقيدة. بل كان من أعلامهم الذين تذكر أقوالهم ويستشهد بمنافحتهم ودفاعهم عن حياضها.

المبحث الثاني

إتجاهـــــه الفقهـــي

إنّ المتتبع لمسيرة الإمام الذهلي العلمية، الناظر في روايته ودرايته للحديث النبوي الشريف، ليدرك أنه لم يكن مجرد محدث تربع على عرش إمارة المؤمنين في الحديث في زمانه. بل كان مع ذلك علماً من أعلام المحدثين الفقهاء الذين أكدوا على منهجية العلم الصحيحة عند أسلافنا رحمهم الله الذين مزجوا دراية الحديث وروايته بفقهه واستنباط الأحكام الشرعية من نصوصه.

فقد ذكره أبو عبد الله الحاكم ضمن العلماء الذين كانت لهم معرفة وتعمق في فقه الحديث الذي هو ثمرة علوم مصطلح الحديث عموماً، وبه قوام الشريعة فقال: -

فأما فقهاء الإسلام أصحاب القياس والرأي والاستنباط والجدل والنظر فمعروفون في كل عصر وأهل كل بلد، ونحن ذاكرون بمشيئة الله في هذا الموضع فقه الحديث عن أهله ليستدل بذلك على أن أهل هذه الصنعة من تبحر فيها لايجهل فقه الحديث إذ هو نوع من أنواع هذا العلم.

ثم ذكر رحمه الله من أصحاب هذا الاتجاه المبارك محمد بن مسلم الزهري، ويحيى بن سعيد الأنصاري وعبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي، وسفيان بن عيينة، وابن المبارك، ويحيى بن سعيد القطان، وعبد الرحمن بن مهدي، وأحمد بن حنبل، وعلي ابن المديني، ويحيى بن معين، وإسحاق بن راهويه، ثم محمد بن يحيى الذهلي رحمهم الله أجمعين.[1]

---

(١) معرفة علوم الحديث ص ٦٣ ـ ٧٣.

ومن استعراض المسائل الفقهية الآتية يتبين بوضوح وجلاء أن الإمام الذهلي كان من الأئمة المجتهدين، بعيداً عن مناهج التقليد في الفقه، مستنبطاً للأحكام من النصوص بما يؤدي إليه علمه، يدل على ذلك مثل عباراته التالية :

«نرى الوضوء من مس الذكر استحباباً لا إيجاباً بحديث عبد الله بن بدر...الخ»

ومثل عبارة [**«...من سمع هذا الحديث ثم لم يرفع يديه يعني إذا ركع وإذا رفع رأسه من الركوع فصلاته ناقصة..»**] وكذا بقية اطلاقاته الفقهية يشم منها روح الاستقلالية وإعمال العقل استنباطاً من النصوص الشرعية . وهذه بعض المسائل الدالة على ذلك :

المسألة الأولى: الوضوء «من مس الذكر»

أخرج ابن خزيمة حديثاً بسنده عن مروان عن بسرة بنت صفوان[1] أنها سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : (إذا مس أحدكم ذكره فليتوضأ)[2] وقد تعرض الإمام الذهلي لهذه المسألة فقال:**«نرى الوضوء من مس الذكر استحباباً لا إيجاباً بحديث عبد الله بن بدر عن قيس بن طلق[3] عن أبيه عن النبي صلى الله عليه**

---

(١) هي بسرة بنت صفوان بن نوفل بن أسد القرشية الأسدية، صحابية لها سابقة وهجرة، عاشت إلى خلافة معاوية ، أسد الغابه ٧/ ٤٠ ، التقريب ص ٧٤٤ .

(٢) الحديث أخرجه مالك في الطهارة باب الوضوء من مس الفرج ١/ ٤٢ ، وأبو داود في الطهارة باب الوضوء من مس الذكر ١/ ١٢٥ ، والترمذي في الطهارة باب الوضوء من مس الذكر ١/ ١٢٦ ، والنسائي في الطهارة باب الوضوء من مس الذكر ١/ ١٠٠ . وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح ، كما نقل عن البخاري قوله : وأصح شيء في هذا الباب حديث بسرة ١/ ١٢٩ . وأحمد والدارقطني وابن معين والبيهقي والحازمي وابن العربي، فيما حكاه الحافظ في تلخيص الحبير ١/ ١٣١ .

(٣) حديث قيس بن طلق عن أبيه بلفظ (الرجل يمس ذكره أعليه وضوء؟ فقال صلى الله عليه وسلم : إنما هو بضعة منك) أخرجه الترمذي في الطهارة باب ماجاء في ترك الوضوء من مس الذكر ١/ ١٣١ والنسائي في الطهارة باب ترك الوضوء من ذلك ١/ ١٠١ . وقد صححه عمرو ابن علي الفلاس وقال : هو عندنا أثبت من حديث بسرة ، وروى عن ابن المديني أنه قال : هو عندنا أحسن من حديث بسرة ، وصححه أيضا . ابن حبان والطبراني وابن حزم، وضعّفه الشافعي وأبو حاتم وأبو زرعة والدارقطني وابن الجوزي وادعى فيه النسخ ابن حبان والطبراني والحازمي . تلخيص الحبير ١/ ١٣٤ .

وسلم.[1]، فالإمام الذهلى رحمه الله استدل على صرف الوجوب إلى الاستحباب في المسألة بحديث طلق بن علي المتقدم ذكره ، فتبين من ذلك أنه لم يقلد أحداً في القول بهذا بل اجتهد في المسألة وقال بما ترجّح عنده وهذا دليل على سعة علمه وفقهه وبلوغه شأواً عظيماً في درجات الاجتهاد وذلك من قوله «نرى» وهو دليل على اجتهاده الخاص والله أعلم. وقد نقل ابن خزيمة في صحيحه بسنده إلى مالك بن أنس قوله «أرى الوضوء من مس الذكر استحباباً لا أوجبه»[2] وذكر ذلك أيضاً عن الإمام أحمد عندما سئل عن الوضوء من مس الذكر فقال: «أستحبه ولا أوجبه»[3] ونقل عبد الله بن أحمد في مسائله عن أبيه في هذه المسألة قوله لمّا سئل عن ذلك «يعجبنى أن يتوضأمنه»[4] وقد ذهب إلى عدم نقض الوضوء بمس الذكر علي ابن أبي طالب، وابن مسعود، وعمار، وحذيفة، ومن التابعين الحسن وربيعة، ومن الأئمة الثوري وأبو حنيفة، وأصحابه. وذهب إلى أنه ناقض من الصحابة عمروابنه عبد الله وابن عباس وأبوهريرة وعائشة وسعد وغيرهم ، ومن التابعين عطاء و الزهري وابن المسيب ومجاهد، ومن الأئمة الشافعي وأحمد ومالك في المشهورعنه وغير هؤلاء .[5]

المسألة الثانية : رفع اليدين عند الركوع وعند الرفع منه .

قال ابن خزيمة: نا بندار، نا أبو داود، نا فليح بن سليمان، حدثنى العباس ابن سهل الساعدي قال: إجتمع ناس من الأنصار فيهم سهل بن سعد

(١) صحيح ابن خزيمة ١/ ٢٣.
(٢) المصدر السابق ١/ ٢٢.
(٣) المصدر السابق ١/ ٢٣.
(٤) مسائل الإمام أحمد بن حنبل رواية ابنه عبدالله ص ١٦، تحقيق زهير الشاويش.
(٥) نيل الاوطار ١/ ٣٠٠، نصب الراية لأحاديث الهداية ج١/ ٦٣ للعلامة جمال الدين الزيلعي الحنفي، المغني ج١/ ١٧٨، تهذيب سنن أبي داود ١/ ٦٣ للإمام ابن قيم الجوزية، النسخة المطبوعة مع مختصر سنن أبي داود للمنذري ومعالم السنن للخطابي، تحقيق محمد حامد الفقي. والجدير بالذكر أن للإمام أحمد في هذه المسألة روايتان ذكر ذلك عنه صاحب المغني في الموضع السابق.

الساعدي، وأبو حميد الساعدي، وأبو أسيد الساعدي فذكروا صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أبو حميد دعوني أحدثكم وأنا أعلمكم بهذا قالوا: فَحَدِّثْ. قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الوضوء، ثم دخل الصلاة وكبّر فرفع يديه حذو منكبيه، ثم ركع فوضع يديه على ركبتيه كالقابض عليها. فلم يصب رأسه ولم يقنعه ونحّى يديه عن جنبيه ثم رفع رأسه فاستوى قائماً حتى عاد كل عظم منه إلى موضعه، ثم ذكر بندار بقية الحديث. وقال في آخره: فقال القوم كلهم: هكذا كانت صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

أخبرنا أبو طاهر، نا أبو بكر قال سمعت محمد بن يحيى، يقول: **من سمع هذا الحديث ثم لم يرفع يديه يعني إذا ركع وإذا رفع رأسه من الركوع فصلاته ناقصة.**[1] هذا تأكيد من الإمام الذهلي رحمه الله على الإلتزام بسنن المصطفى صلى الله عليه وسلم وأن لا عذر لمن بلغه الحديث في ترك هذه السنن. وقد استدل هنا بثبوت التكبير في الركوع والرفع منه وسائر أفعال الصلاة عنه صلى الله عليه وسلم على نقصان صلاة المفرط في ذلك وهذا فقه عظيم منه رحمه الله إذ أنه لم يقل بنقض صلاته ولا بجواز ترك التكبير. بل كان قوله من الدقة والفقه بحيث يلزم المصلي بالإتيان بالسنن الثابتة عن النبى صلى الله عليه وسلم لتتم صلاته بأركانها وسننها وهذا غاية في الفقه والعلم والله أعلم. ومما يؤيد ما ذهب إليه الإمام الذهلي في المسألة ما جاء في حديث المسيء عند الترمذي وجاء فيه (. . . وان انْتَقَصْتَ منه شيئاً فقد انتقصت من صلاتك)[2] الحديث. وقد بوب

(١) صحيح ابن خزيمة ١/ ٢٩٨. وكذا أخرجه أبو داود في سننه في كتاب الصلاة، باب افتتاح الصلاة١/ ٤٧١، والترمذي في سننه في أبواب الصلاة، باب١١٠، وقال: حسن صحيح٢/ ١٠٧، وأحمد في مسنده ٥/ ٤٢٤، والبغوي في شرح السنة٣/ ١٢، وابن الجارود ص١٠١، وزاد أبو داود وابن الجارود وغيرهما في آخره قالوا: صدقت هكذا كان يصلي رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(٢) سنن الترمذي كتاب الصلاة باب (١١٠) ما جاء في وصف الصلاة ٢/ ١٠٠. وقال حديث حسن.

الإمام البخارى رحمه الله في صحيحه لهذا فقال: «باب إتمام التكبير في الركوع» وساق حديث عمران بن حصين وفيه (فذكر أنه كان يكبر كلما رفع، وكلما وضع). قال الحافظ في شرحه: «لكن استقر الأمر على مشروعية التكبير في الخفض والرفع لكل مصل . . . . وعن أحمد وبعض أهل العلم بالظاهر يجب كله[1] . . . . قوله (كلما رفع وكلما وضع) هو عام في جميع الانتقالات في الصلاة لكن خص منه الرفع من الركوع بالاجماع فإنه شرع فيه التحميد[2]. بل قال الحافظ بعد ذلك عندما أورد دعوى ابن بطال الإجماع على أن من ترك التكبير فصلاته تامة قال: «وفيه نظر لما تقدم عن أحمد، والخلاف في بطلان الصلاة بتركه ثابت في مذهب مالك إلا أن يريد اجماعاً سابقاً»[3] وقد حكى مشروعية التكبير في كل خفض ورفع الترمذى . . . قال: (وعليه عامة الفقهاء والعلماء)[4] . . . . . وقد اختلف القائلون بمشروعية التكبير فذهب جمهورهم إلى أنه مندوب فيما عدا تكبيرة الإحرام . . . . . واحتج الجمهور على الندبية بأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يعلمه المسيء في صلاته» قال الشوكاني: وأما الجواب بأنه صلى الله عليه وسلم لم يعلمه المسيء فممنوع، بل قد أخرج أبو داود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للمسيء بلفظ: «ثم يقول الله أكبر ثم يركع حتى يطمئن مفاصله» إلى قوله «فإذا فعل ذلك فقد تمت صلاته»[5] قال صاحب المغني رحمه الله: « وأكثر أهل العلم يرون أن يبتدىء الركوع بالتكبير وأن يكبر في كل خفض ورفع منهم ابن مسعود وابن عمر وجابر

(١) قال سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز في تعليقه على الفتح عند هذا الموضع: «وهذا القول أظهر من حيث الدليل لأن الرسول صلى الله عليه وسلم حافظ عليه وأمر به وأصل الأمر للوجوب. وقد قال صلى الله عليه وسلم [صلوا كما رأيتموني أصلي] فتح الباري ٢/ ٢٧٠.

(٢) المصدر السابق.

(٣) فتح الباري ٢/ ٢٧١.

(٤) نيل الاوطار ٣/ ٩٦.

(٥) المصدر السابق ٣/ ٩٧، ٩٨.

وأبو هريرة . . . ومالك والأوزاعي وابن جابر والشافعي وأبو ثور وأصحاب الرأي وعوام العلماء من الأمصار» ثم نقل رحمه الله عن البخاري قوله: قال علي ابن المديني ـ وكان أعلم أهل زمانه: حق على المسلمين أن يرفعوا أيديهم لهذا الحديث . . . . . فصار كالتواتر الذى لا يتطرق إليه الشك . . . وعمل به الصحابة والتابعون وأنكروا على من لم يعمل به، قال الحسن: رأيت أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم يرفعون أيديهم إذا كبروا وإذا ركعوا وإذا رفعوا رؤوسهم كأنها المراوح. قال أحمد: وقد سئل عن الرفع: إي لعمري ومن يشك في هذا كان ابن عمر إذا رأى من لا يرفع حصبه وأمره أن يرفع» اهـ[1].

المسألة الثالثة: ما تراه الحائض بعد الطهر من الصفرة والكدرة وغيرها.

قال ابن ماجه «باب ما جاء في الحائض ترى بعد الطهر الصفرة والكدرة».

حدثنا محمد بن يحيى: ثنا عبيد الله بن موسى عن شيبان النحوي، عن يحيى بن كثير عن أبي سلمة عن أم بكر أنها أخبرت أن عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في المرأة ترى ما يريبها بعد الطهر قال: «إنما هي عرق أو عروق». قال محمد بن يحيى: يريد بعد الطهر بعد الغسل.[2]

وهذا الذى أشار إليه الإمام محمد بن يحيى الذهلي ـ رحمه الله ـ في سياق الحديث إنما هو زيادة بيان وتوضيح للمسألة فإن ما تراه الحائض من الدم لا يكون

---

(١) المغني ١/ ٤٩٥ - ٤٩٨.

(٢) سنن ابن ماجه كتاب الطهارة وسننها باب ما جاء في الحائض ترى بعد الطهر الصفرة والكدرة ١/ ٢١٢. قال البوصيري في مصباح الزجاجة ١/ ٨٣: هذا إسناد صحيح ورجاله ثقات. والحديث متفق عليه من غير هذا الوجه من حديث عائشة قالت: قالت فاطمة بنت أبي حبيش لرسول الله صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله إني لا أطهر، أفأدع الصلاة؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنما ذلك عرق وليس بالحيضة، فإذا أقبلت الحيضة فاتركي الصلاة، فإذا ذهب قدرها فاغسلي عنك الدم وصلي» هذا لفظ البخاري في صحيحه، كتاب الحيض، باب الاستحاضة ١/ ٩١، ورواه مسلم في صحيحه، كتاب الحيض، باب المستحاضة وغسلها وصلاتها ١/ ٢٦٢.

المسألة الرابعة : مقدار الصاع النبوي

قال البيهقي في باب ما دل على أن صاع النبي صلى الله عليه وسلم كان عبارة عن خمسة أرطال وثلث . أخبرنا أبو عبد الله الحافظ قال : قرأت بخط أبي عمرو المستملي . سمعت محمد بن يحيى يعني الذهلي يقول : استعرت من اسماعيل ابن أبي أويس صاع مالك بن أنس فوجدت عليه مكتوباً صاع مالك بن أنس معير على صاع النبي صلى الله عليه وسلم ولا أحسبني إلا عيرته بالعدس فوجدته خمسة أرطال وثلث .[1] يقول ابن قدامة -رحمه الله- في هذه المسألة : «وأما كون الصاع خمسة أرطال وثلث ففيه اختلاف»[2] وقال في كتاب الطهارة : «والصاع : خمسة أرطال وثلث بالعراقي والمد ربع ذلك وهو رطل وثلث وهذا قول مالك والشافعي واسحاق . . . . . وقال أبو حنيفة : الصاع ثمانية أرطال لأن أنس بن مالك قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوضأ بالمد - وهو رطلان - ويغتسل بالصاع»[3] وقال الزيلعي «لم نجد بين أهل العلم إلى يومنا هذا خلافاً في قدر الصاع إلا ما قاله الحجازيون والعراقيون فزعم الحجازيون أن الصاع خمسة أرطال وثلث وقال العراقيون : ثمانية أرطال فصح أن صاع النبي عليه السلام كان خمسة أرطال وثلث . . . . وبطل قول من زعم : أن الصاع ثمانية أرطال من غير دليل ثبت على صحته . »[4] ونقل عن أبي حنيفة القول بأن الصاع ثمانية أرطال . وقال الحافظ ابن حجر : «قال بعض الفقهاء من الحنفية وغيرهم : إن الصاع ثمانية أرطال والصحيح الأول»[5] ونقل عن الإمام النووي قوله أن الصاع خمسة أرطال وثلث وقال : «هذا هو الصواب المشهور» .[6]

(١) البيهقي ٤/ ١٧١ .
(٢) المغني كتاب الزكاة ٢/ ٧٠٠ .
(٣) المغني كتاب الطهارة ١ / ٢٢٢ .
(٤) نصب الراية ٢/ ٤٢٨ .
(٥) فتح الباري ١/ ٣٦٤ .
(٦) المجموع شرح المهذب [٦/ ١٢٨] للإمام شرف الدين النووي .

دم عرق أو استحاضة إلا بعد الطهر. وهو موافق لما ثبت من حديث أم عطية قالت: «كنا لا نعد الكدرة والصفرة بعد الطهر شيئاً»[1] وهو ما بوب به الإمام البخاري رحمه الله قال: باب الصفرة والكدرة في غير أيام الحيض، وساق حديث أم عطية.[2] وقال صاحب المغنى: «يعنى إذا رأت في أيام عادتها صفرة أو كدره فهو حيض، وإن رأته بعد أيام حيضها لم يعتد به. نص عليه أحمد. وبه قال يحيى الأنصارى وربيعة ومالك والثوري والاوزاعي وعبد الرحمن بن مهدي والشافعي واسحاق»[3] ونسب هذا القول إلى الجمهور الشوكاني قال: «ويدل بمنطوقه أنه لا حكم للكدرة والصفرة بعد الطهر بمفهومه أنهما وقت الحيض حيض كما ذهب إليه الجمهور»[4] وأما قوله: «بعد الغسل» فقد وافق ما رواه الدارمي من حديث أم عطية بزيادة «كنا لا نعتد بالكدرة والصفرة بعد الغسل شيئاً»[5] وهو من فقه الإمام الذهلي رحمه الله فقد وافق بقوله روايات حديث أم عطية. قال ابن قدامه: «وحديث أم عطية إنما يتناول ما بعد الطهر والاغتسال ونحن نقول به»[6]

فتبين من هذا صواب ما رآه الإمام الذهلي في توضيحه لمراد الحديث والله أعلم.

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الطهارة باب في المرأة ترى الصفرة والكدرة بعد الطهر ١/ ٢١٥. والحديث أصله في الصحيحين من حديث أم عطية بغير ذكر «بعد الطهر».

(٢) صحيح البخاري كتاب الحيض «باب الصفرة والكدرة في غير أيام الحيض، ١/ ٩٧.

(٣) المغني ج١ / ٣٣٢.

(٤) نيل الأوطار ج١/ ٤١٠.

(٥) سنن الدارمي كتاب الطهارة باب «الكدرة اذا كانت بعض الحيض» ج١/ ٢٣٥. للإمام عبدالله بن عبد الرحمن الدارمي، تحقيق وفهرسة فواز زمرلي، خالد العلمي.

(٦) المغني ج١/ ٣٣٣.

وأخرج الدار قطني بسنده إلى الإمام مالك لمّا سئل عن صاع النبي صلى الله عليه وسلم قال «خمسة أرطال وثلث بالعراقي»[1] . وقال عثمان بن سعيد الدارمي سمعت علي ابن المديني يقول: عيَّرت صاع النبي عليه السلام فوجدته خمسة أرطال وثلث رطل بالتمر»[2] قال ابن قدامة «وقد نص أحمد على أن الصاع خمسة أرطال وثلث من الحنطة . . . . قال أحمد: أخذت الصاع من أبي النضر . . . وقال: «هذا صاع النبي صلى الله عليه وسلم الذى يعرف بالمدينة»[3] وتخصيص الإمام الذهلي الكيل بالعدس كان لنكتة لطيفة وهى أن للعدس خاصية جيدة عبّر عنها الإمام أحمد بقوله «فأخذنا العدس فعيرنا به وهو أصلح ما يكال به. لأنه لا يتجافى عن مواضعه فكلنا به ووزناه»[4] وحزر الإمام الذهلي للصاع النبوى بذلك هو اختيار الائمة من قبله وهو الصواب . فتبين من ذلك مدى اهتمام الإمام الذهلي بما يتصل بأحوال النبي صلى الله عليه وسلم الشرعية، ومحاولة اقتفاء أثره صلى الله عليه وسلم.

المسألة الخامسة: الإشتراط في الحج

قال الإمام ابن الجارود رحمه الله:

حدثنا محمد بن يحيى، قال حدثنا عبد الرزاق قال أنا معمر عن الزهري عن عروة عن عائشة رضى الله عنها قالت: دخل النبي صلى الله عليه وسلم على ضباعة[5] بنت الزبير بن عبد المطلب رضي الله عنها فقالت: (إني أريد الحج وأنا

(١) سنن الدار قطني كتاب زكاة الفطر ٢/ ١٥١، للإمام علي بن عمر الدارقطني، تصحيح السيد عبد الله هاشم المدني.

(٢) نصب الراية كتاب الزكاة ٢/ ٤٢٩.

(٣) المغني ٢/ ٧٠١، للإمام موفق الدين بن قدامة المقدسي.

(٤) المغني ٢/ ٧٠١.

(٥) ضباعة بنت الزبير بن عبدالمطلب الهاشمية ابنة عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، كانت زوج المقداد بن عمرو، فولدت له عبدالله وكريمة روى عنها ابن عباس وجابر وأنس وعائشه وعروة والأعرج.
أسد الغابة ٧/ ١٧٨.

شاكية ؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم . حجّي واشترطي إنَّ محلّي حيث حبستني) .

حدثنا الحسن بن أحمد بن سليمان، قال قال محمد بن يحيى : حديث عبدالرزاق عندنا محفوظ في قصة ضباعة رضى الله عنها محتج به لمن أراد الشرط في الحج .[1] اختلف العلماء في مسألة الاشتراط في الحج فمن قائل بمشروعيتها ومنكر لذلك . قال الحافظ ابن حجر : « وصحّ القول بالاشتراط عن عمر وعثمان وعلي وعمار وابن مسعود وعائشة وأم سلمة وغيرهم من الصحابة ولم يصحّ انكاره عن أحد من الصحابة إلا عن ابن عمر ووافقه جماعة من التابعين ومن بعدهم من الحنفية والمالكية» [2] وقال أيضاً «ثم اختلف من قال به فقيل : واجب لظاهر الأمر . وهو قول الظاهرية وقيل مستحب وهو قول أحمد»[3] وهو قول الحنابلة . قال ابن قدامة«يستحب لمن أحرم بنسك أن يشترط عندإحرامه»[4] وقال النووي : «ففيه دلالة لمن قال : يجوز أن يشترط الحاج والمعتمر في إحرامه أنه إن مرض تحلل وهو قول عمر ابن الخطاب . . . . . وأحمد واسحق وأبي ثور، وهو الصحيح من مذهب الشافعي»[5] قال الشوكاني «وأحاديث الباب تدل على أن من اشترط هذا الاشتراط ثم عرض له ما يحبسه عن الحج جاز له التحلل وأنه لا يجوز التحلل مع عدم الاشتراط»[6] ومن هذا يتضح أن الإمام الذهلي يحتج بحديث ضباعة على مشروعية الاشتراط في الحج والله أعلم .

---

(١) المنتقى لابن الجارود ص ١٧٢ . والحديث أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب النكاح، باب الأكفاء في الدين ٦/ ١٤٩، ومسلم في صحيحه في كتاب الحج، باب جواز اشتراط المحرم التحلل بعذر المرض ٢/ ٨٦٧ .

(٢) فتح الباري ٤/ ٩ .

(٣) فتح الباري ٤/ ٩ .

(٣) المغني ٣/ ٢٨٢ .

(٤) شرح مسلم، للإمام محيي الدين النووي ٨/ ١٨٤ .

(٥) نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار ٦/ ٤٣، للإمام محمد بن علي الشوكاني، تحقيق الأستاذان طه عبد الرؤوف، مصطفى الهواري .

الفصل الرابـــع

بسط القول في مسألة اللفظ بالقرآن وما وقع بين الإمامين الذهلي والبخاري بسببها ، وأثرها في صفوف المحدثين

ويشمل تمهيد وخمسة مباحث :

المبـــحث الأول : الخلاف في مسألة اللفظ بين أهل الحديث .

المبحث الثاني : أول من آثار المسألة .

المبحث الثالث : إلقاء الضوء على مسألة اللفظ .

المبحث الرابع : عرض تفصيلي لما حصل بين الإمامين الذهلي والبخاري .

المبحث الخامس : أثر مسألة اللفظ في صفوف المحدثين .

تمهيـــد

الحمد للّه الذى لم يترك عباده هملاً، بل أرسل إليهم رسلاً، مبشرين بجنته لمن أطاع، ومنذرين من عقابه لمن أبى، وأكمل لهم الدين إلى يوم القيامة برسالة محمد صلى اللّه عليه وسلم، قال تعالى: ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً** ﴾[1] وأمرهم بالاعتصام بدينه، ونهاهم عن الفُرقة واتباع المضلين كما قال تعالى: ﴿**واعتصموا بحبل اللّه جميعاً ولاتفرقوا واذكروا نعمة اللّه عليكم إذ كنتم أعداء فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرةٍ من النار فأنقذكم منها كذلك يبين اللّه لكم آياته لعلكم تهتدون** ﴾[2].

وصلى اللّه وبارك على نبي الهدى نبينا محمد الذي لم يفارق هذه الدنيا إلا وقد أقام الحجة على الإنس والجن وتركهم على بينة من أمر دينهم، نقية لا تشوبها شائبة، ولا يكدر صفاءها مكدر.

روى العرباض بن سارية[3] رضي اللّه عنه قال: قام فينا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ذات يوم، فوعظنا موعظة بليغة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون فقيل: يارسول اللّه وعظتنا موعظة مودع. فاعهد إلينا بعهد. فقال: « عليكم بتقوى اللّه والسمع والطاعة وإن عبداً حبشياً. وسترون من بعدي اختلافاً شديداً. فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين. عضوا عليها بالنواجذ وإياكم والأمور المحدثات. فإن كل بدعة ضلالة»[4].

---

(١) سورة المائدة آية ٣.

(٢) سورة آل عمران آية ١٠٣.

(٣) هو العرباض بن سارية السُّلَمي، يكنى أبا نجيح، سكن الشام، وتوفي سنة ٧٥، أسد الغابة ٤/ ١٩.

(٤) رواه أبو داود في سننه، كتاب السنة باب (٥) في لزوم السنة ٥/ ١٣، ومحمد بن عيسى الترمذي في سننه المسماة بـ(الجامع) تحقيق وشرح وتصحيح الشيخ أحمد شاكر في كتاب العلم، باب (١٦) في الأخذ بالسنة واجتناب البدع ٥/ ٤٣، وابن ماجه في المقدمة باب «اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين» (٦) واللفظ له ورواه أحمد في مسنده ٤/ ١٢٦، ١٢٧، والدارمي في سننه المقدمة باب (١٦) في اتباع السنة ١/ ٥٧، وأبي عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري في المستدرك على الصحيحين، في كتاب العلم ١/ ٩٥، ٩٦، ٩٧.

ومضى عهد النبوة السعيد، فحمل مشعل الهداية صحابة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، ففتحوا الممالك ونشروا دين اللّه وبلّغوه مشارق الأرض ومغاربها، وأروا البشرية من أنفسهم « جيلاً قرآنياً فريداً »[1] لايمكن أن يتكرر بمجموعه على مدى التاريخ لتأثرهم بشخصه صلى اللّه عليه وسلم ولصفاء منهج التلقي والتربية لديهم وهو (الكتاب والسنة) أولاً، ولطهارة نفوسهم وقوة إيمانهم وصدق إتباعهم رضوان اللّه عليهم أجمعين ثانياً[2].

ومازال هذا شأن الناس حتى داخلهم من لبس ثوب الإسلام، وتجمل بأخلاقه، على قلب حقود، وصدر حسود ، ونفس تأكلها نار العداوة لهذا الدين وأهله، فبذروا في الناس بذور الفتنة، وزينوا لهم العزوف عن الكتاب والسنة، وألقوا حبال الشيطان في المجتمعات الإسلامية كي تزلزل أركانها، ومن هذه الفتن نشأت بدع الخوارج[3] والشيعة[4] واعتقاداتهم الباطلة، وقد ظهرت هاتان الفرقتان في عام ٣٧هـ في منتصف خلافة علي ابن أبى طالب رضي الله عنه ، وكانتا بمثابة حجر أساس لقيام وتتابع سلسلة من الفرق الضالة المنحرفة. ثم

(١) عنوان فصل من كتاب معالم في الطريق للأستاذ سيد قطب رحمه الله .

(٢) للوقوف على المزيد من صفات ذلك الركب المبارك يرجع إلى « تربية النبي صلى اللّه عليه وسلم لأصحابه » رسالة ماجستير في جامعة أم القرى قدمها الأخ الدكتور خالد القرشي ، وإلى فصل « جيل قرآني فريد» من كتاب « معالم في الطريق » لسيد قطب، وإلى « نظرة إلى الجيل الفريد » من كتاب واقعنا المعاصر للأستاذ محمد قطب .

(٣) الخوارج : « اصطلاح يطلق على الذين خرجوا على أمير المؤمنين علي رضى اللّه عنه حين جرى التحكيم » الملل والنحل للشهرستاني ١/ ١١٥ .

(٤) الشيعة : هم الذين شايعوا علياً رضى اللّه عنه وغالوا في محبته وقدموه على غيره من الخلفاء الراشدين وقد بين الحافظ ابن حجر مراتبهم فقال : « التشيع محبة علي وتقديمه على الصحابه . فمن قدمه على أبي بكر وعمر فهو غال في تشيعه، ويطلق عليه رافضي وإلا فشيعي. فإن انضاف إلى ذلك السب أو التصريح بالبغض فغال في الرفض. وإن اعتقد الرجعة إلى الدنيا فأشد في الغلو ». هدي الساري مقدمة فتح الباري شرح صحيح البخاري للحافظ ابن حجر العسقلاني، تصحيح محب الدين الخطيب. ص ٤٥٩ ، الملل والنحل بتصرف ١/ ١٤٦ .

ظهرت بدعتا القدرية[1] والمرجئة[2] وكل هذه الفرق الأربع كانت في عهد الصحابة رضي اللّه عنهم، وقد اشتد نكيرهم على أصحابها وتحذير الناس من مجالستهم والاغترار بأقوالهم. ثم توالت الفرق ففي مطلع القرن الثانى ١٠٠ - ١٥٠ هـ ظهر أربعة أشخاص من المبتدعة صار كل واحد منهم فيما بعد رأسا في الضلال.

[١] واصل بن عطاء[3] ت ١٣٠ هـ مؤسس فرقة المعتزلة.

[٢] الجعد بن درهم[4] ت ١٢٤ هـ وهو أول من قال بخلق القرآن، وأنكر كلام اللّه على الحقيقة، وأنكر أن اللّه اتخذ إبراهيم خليلاً، وأنكر استواء اللّه على العرش.

[٣] الجهم بن صفوان[5] ت ١٢٨ هـ الذى تبنى آراء الجعد بن درهم، من نفي الصفات والقول بخلق القرآن وزاد عليها.

---

(١) بيّن الشيخ حافظ الحكمي: أن مذهب القدرية هو «إضافة الفعل والانفعال إلى المخلوق» وأول من أحدثه معبد الجهني في آخر عهد الصحابة، الذين كفّروا منتحلي هذا المذهب ثم ورثه رؤوس المعتزلة الذين بالغوا وأنكروا علم اللّه وتقديراته وجعلوا العباد هم الخالقين لأفعالهم ولذا كانوا مجوس هذه الأمة / معارج القبول ١/ ٣٥٠.

(٢) المرجئة اسم يطلق على من يؤخرون العمل عن النية والعقد، ومن يعتقدون أنه لا تضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة. راجع الملل والنحل، ١/ ١٣٩.

(٣) هو واصل بن عطاء البصري الغزّال المتكلم البليغ: قال أبو الفتح الأزدي: رجل سوء كافر. وقال ابن حجر: كان من أجلاء المعتزلة ولد سنة ثمانين بالمدينة، وكان يتوقف في عدالة أهل الجمل، ويقول: إحدى الطائفتين فسقت لا بعينها، فلو شهد عندي علي وعائشة وطلحة على باقة بقل لم أحكم بشهادتهم، مات سنة إحدى وثلاثين ومائة. لسان الميزان ٦/ ٢٦١.

(٤) الجعد بن درهم مؤدب مروان الحمار، وهو أول من ابتدع بأن اللّه ما اتخذ ابراهيم خليلاً، ولاكلم موسى، وأن ذلك لا يجوز على اللّه، قال المدائني: كان زنديقاً. قال ابن حجر: وللجعد أخبار كثيرة في الزندقة، قتل بالعراق يوم النحر. سير أعلام النبلاء، ٩/ ٤٣٣ لسان الميزان ٢/ ١٠٥.

(٥) أبو محرز الراسبي أس الضلالة، ورأس الجهمية، كان ينكر الصفات، وينزه البارى عنها بزعمه، ويقول: إن اللّه في الأمكنة كلها، وكان يقول: الإيمان عقد القلب، وإن تلفظ بالكفر. السير ٦/ ٢٦، لسان الميزان٢/ ١٧٩.

[٤] مقاتل بن سليمان [١] وكان ظهوره رد فعل لغلو جهم في نفي الصفات، فغالى هذا في إثباتها حتى جسَّم .

ومن عام ١٥٠-٢٣٤هـ لم تظهر أي بدع جديدة ، وإنما تداخلت البدع بعد ذيوعها وكثرة أتباعها وانحصرت في أربع فرق كما ذكر يوسف بن أسباط وعبدالله بن المبارك [٢] .

(أ) الخوارج (ب) الشيعة (ج) المعتزلة [٣] (د) المرجئة .

فالشيعة تبنت المجسمة ، والمعتزلة تبنت القدرية وجزءاً من الجهمية ، والجبرية دخلت في المرجئة وغيرها من الفرق [٤] . وأصبح لكل واحدة من هذه الفرق فرق صغرى تتفرع منها حتى كثر الابتداع والخروج على مفاهيم الدين الإسلامى ! وصدق صلى الله عليه وسلم حيث قال : « تفرقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة أو اثنتين وسبعين فرقة ، والنصارى مثل ذلك ، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة » قال أبو عيسى الترمذي : حديث حسن صحيح [٥] .

---

(١) هو مقاتل بن سليمان البلخي، أبو الحسن كبير المفسرين، قال ابن المبارك : ما أحسن تفسيره لو كان ثقة . قال وكيع : كان كذاباً، وقال أبو حنيفة « أتانا من المشرق رأيان خبيثان : جهم معطل، ومقاتل مشبه » السير ٧/ ٢٠١ .

(٢) انظر تقرير ذلك في درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية بتحقيق د . محمد رشاد سالم ٥/ ٣٠٢، ٧/ ١١٠ .

(٣) المعتزلة هم أتباع واصل بن عطاء الذى اعتزل مجلس البصري فسمي بذلك، وهو أول من صنف في علم الكلام والجدل مع أهل السنة ولهم خمسة أصول منها المنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وخالفوا أهل السنة في قضايا وأمور . ومن أسوأ أحوالهم اعتقاد خلق القرآن الذى تجهموا به . انظر عقائدهم في لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية، شرح الدّرة المضيَّة في عقيدة الفرقة المرضيَّة للعلامة محمد بن أحمد السَّفاريني ، بتعليقات الشيخ أبا بطين، والشيخ سليمان بن سحمان ١/ ١٢، ٧٦ .

(٤) توالي الفرق وتواريخ ظهورها استقيته بتصرف من مقدمة الدكتور أحمد سعد حمدان لتحقيقه كتاب شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي «١/ ٢٨، ٣٢» وانظر في نفس الموضوع على سبيل المثال : الملل والنحل للشهرستاني، والفرق بين الفرق للبغدادى .

(٥) أخرجه أبو داود في سننه في كتاب السنة باب شرح السنة (٥/ ٤)، والترمذي في جامعه كتاب الإيمان باب (١٨) ما جاء في افتراق الأمة، ٥/ ٢٦، وابن ماجه في كتاب الفتن باب (١٧) افتراق الأمم ٢/ ١٣٢١، وأحمد في مسنده ٢/ ٣٣٢، ٣/ ١٤٥ .

وقد لقيت المجتمعات الإسلامية ، من الفرق الضالة نصباً وعناءً كبيرين ، واضطراباً شتت الأمة ، ولم تلبث الأيام والليالي الحبالى بكل فجيعة !! إلا وتطرق بوابة الإسلام بألوان جديدة من الشرور والفتن وقد صوّر الإمام الذهبي هذه الفتن وتكالبها بعد وفاة الرشيد رحمه اللّه ثم اضطراب الأمور وضعف الدولة بخلافة أبنائه ومنهم المأمون [1] الذى قال في عهده : « نجم التشيع ، وأبدى صفحته ، وبزغ فجر الكلام ، وعُرِّبت حكمة الأوائل ومنطق اليونان وعمل رصد الكواكب ، ونشأ للناس علم جديد مرد مهلك لايلائم نور النبوة ، ولا يوافق توحيد المؤمنين ، وقد كانت الأمة منه في عافية وقويت شوكة الرافضة والمعتزلة . . الخ [2] . وكان المأمون قد شجع تعريب علوم اليونان وفلسفاتهم ، ومناهج النصارى وهرطقاتهم [3] وفتح بذلك ألواناً من الشرور مازالت تعاني منها الأمة إلى هذا اليوم . . . . . [4] ، فكان هذا العمل بمثابة هدية غالية للمعتزلة

(١) المأمون هو عبداللّه بن هارون الرشيد أبو جعفر ولد سنة ١٧٠هـ وتولى الخلافة بعد قتل أخيه الأمين سنة ١٩٨هـ واستمر في الخلافة عشرين سنة وخمسة أشهر ، وقد كان فيه تشيع واعتزال وجهل بالسنة الصحيحة ، وكانت له بصيرة بعلوم متعددة فقهاً وطباً وشعراً وفرائض وكلاماً ونحواً ، وغريب حديث وعلم النجوم وقد بدأ امتحان العلماء بخلق القرآن سنة ٢١٨هـ وهي السنة التى توفي فيها ، ومات على هذا القول وأوصى به إلى أخيه المعتصم . راجع تاريخ بغداد ١٠/ ١٨٣ . والسير ١٠/ ٢٧٢ ، والبداية والنهاية ١٠/ ٢٧٤

(٢) تذكرة الحفاظ ، للحافظ الذهبي ١/ ٣٢٨ باعتناء الشيخ عبد الرحمن المعلمي رحمه اللّه .

(٣) الهرطقة : اصطلاح يطلقه النصارى على أي مخالفة لرأي الكنيسة سواء رأي ارتآه عالم في العلوم الكونية ، أو محاولة لفهم الكتاب المقدس لرجل غير كنسي ، أو انتقاد ما يتصل بالكنيسة ، أو مساعدة واحد من هؤلاء والرضا عن منهجه كل ذلك هرطقة : فلسفة الفكر الدينى بين الإسلام والمسيحية ٢/ ٣٢٨ ، ٣٢٩ تأليف لويس غرديه/ ج قنواتي ، نقله للعربية د . صبحي الصالح ، مقارنة الأديان ، للدكتور أحمد شلبي (٢/ ٢١٥) الموسوعة الميسرة في المذاهب والأديان المعاصرة . ندوة الشباب المسلم ص٥٠٥ .

(٤) ومن هذه الشرور أن دراسة الاعتقاد أصبحت فيما بعد عن طريق علم الكلام الذي ضلل الأمة عن صفاء عقيدتها . انظر في ذلك ما كتبه السيد رشيد رضا في مبحث الإيمان باللّه تعالى وفيه اعتماد المسلمين في فهم عقيدتهم على الكتب الكلامية المصنفة . . . . . حتى ضعف التوحيد في القلوب وشابته شوائب الشرك الأصغر ثم الأكبر . . . . . الخ » الوحي المحمدي ص١٥٠ .

الذين أولعوا بالمناهج العقلية والفلسفية . . . فباضوا وفرَّخوا وكثر أتباعهم الذين لاتلائمهم مناهج السلف المعتمدة على النقل من الكتاب والسنة، ووجدوا بغيتهم في ضلالات وتمويهات ومناقشات العقلانيين كالمعتزلة وغيرهم . . . ومما ساعد على ذلك كثرة الأديان والأهواء في البلاد التى فتحها المسلمون، فمن الأديان: «اليهودية، والنصرانية المحرفتان، ومن لها شبهة كتاب كالمجوسية [1] ومن أهل المذاهب والأهواء الفلاسفة والصابئة [2] الذين اتخذوا من حرَّان [3] موطناً لهم وهناك الهنود وآراؤهم، والصينيون وأوهامهم، إلى آخر ماغرقت فيه أمم الأرض من تخبط وتيه قبل شروق شمس الإسلام عليها.

وأمعنت المعتزلة في الفساد وجعلت للعقل سلطاناً كسلطان الدين على الناس . . . فافسدوا عقيدة المسلمين بترهاتهم وجدالهم . . . . وساعدهم على ذلك انخداع مجموعة من الخلفاء والقضاة والولاة والوزراء بتدينهم وتزهدهم وسطوة ألسنتهم، وعمقهم في الجدال . . . . . فقد أقنعوا المأمون بفكرة « خلق القرآن » الباطلة.

قال الذهبي : « ولم تكن الجهمية يظهرون في دولة المهدي والرشيد والأمين فلمّا ولي المأمون كان منهم ، وأظهر المقالة. روى أحمد بن إبراهيم

---

(١) دان الفرس بالمجوسية والثنوية وتفرع من هاتين الديانتين فرق أشهرها الزردشتية والمانوية . انظر تفصيل دياناتهم في الملل والنحل ١/ ٢٣٣، ٢٥٥.

(٢) قال الشهرستانى : الصبوة في مقابلة الحنيفية، وفي اللغة صبأ الرجل : إذا مال وزاغ، فبحكم ميل هؤلاء عن سنن الحق وزيغهم عن نهج الأنبياء قيل لهم الصابئة، ومدار مذهبهم على التعصب للروحانيين/ الملل والنحل ٢/ ٥ .

(٣) حَرّان : مدينة عظيمة مشهورة من جزيرة أقور، وهي على طريق الموصل والشام والروم، قيل سميت بهاران أخي إبراهيم عليه السلام لأنه أول من بناها فعربت فقيل حَرّان، وكانت منازل الصابئة . معجم البلدان ٢/ ٢٣٥ .

الدورقي عن محمد بن نوح أن الرشيد قال : بلغني أن بشر بن غياث المريسي [1] يقول : القرآن مخلوق، فلله علي إن أظفرني به لأقتلنه، قال الدورقي : وكان متوارياً أيام الرشيد فلما مات الرشيد ظهر ودعا إلى الضلالة.

وكان المأمون قد اعتنق الفكرة من عام ٢١٢هـ وبقي ست سنوات متردداً في حمل الناس على ذلك ويراقب بقايا الأشياخ الذين يهابهم مثل يزيد بن هارون . حتى قوي عزمه على ذلك عام ٢١٨هـ [2] وحمل العلماء على القول بخلق القرآن . . . بكتابه [3] إلى نائبه ببغداد إسحاق بن إبراهيم الخزاعي وهدد بالضرب والقتل لمن لم يجب وطارت الفتنة في البلاد. وبعد وفاة المأمون تولّى الأمر من بعده المعتصم ثم الواثق، ثم جاء المتوكل الذى لم يتحمس لهذه الفتنة، بل أمر بهجرها ورفع ثقلها عن قلوب وأذهان المسلمين وكان ذلك في عام ٢٣٤هـ.

---

(١) المتكلم المناظر، كان من كبار الفقهاء، ونظر في الكلام، فقلب عليه، وانسلخ من الورع والتقوى، وجرَّدَ القول بخلق القرآن، وكان عين الجهمية في عصره، فمقته أهل العلم، وكفره عدَّه . مات في آخر سنة ثمان عشرة ومائتين، وقد قارب الثمانين، سير أعلام النبلاء ١٠/ ١٩٩ .

(٢) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزى ص٣٠٨، وانظر اختباره يزيد بن هارون ص٣٠٩ وكانت حاشيته من المتكلمين أمثال ابن أبي دُؤاد أحد رؤوس المعتزلة، وأفصح الناس وأنطقهم وكان المأمون يعظمه ويقبل شفاعاته حتى دسّ له القول بخلق القرآن وحسنه وصيره يعتقده حقاً مبيناً، سير أعلام النبلاء ١١/ ٢٣٦، طبقات الشافعية للسبكي ٢/ ٣٧ .

(٣) ذكر نص الكتاب السبكي في طبقات الشافعية ٢/ ٣٨ وللوقوف على بقية الأحداث وبالأخص ثبات الإمام أحمد في هذه الداهية الدهياء والمصيبة الصماء منذ أن بدئت إلى أن أُنهيت، راجع مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي ص٣٠٨، سير أعلام النبلاء (١٢/ ٢٣٢) في ترجمته رحمه اللّه ، وطبقات الشافعية للسبكي ٢/ ٣٧، والبداية والنهاية ١٠/ ٢٧٢ .

المبحث الأول

خلاف أهل الحديث في مسألة اللفظ *

الخلاف في اللفظ بالقرآن هل هو مخلوق أم غير مخلوق ؟ أمر اختص به أهل الحديث، خلافاً لقضية القول بخلق القرآن فإنها ذات طرفين كبيرين ومتناقضين منهجاً واعتقاداً.

---

* هذه المسألة نشأت بعد انتهاء فتنة القول بخلق القرآن بفترة وجيزة « وهي أسوأ نتائج تلك الفتنة التي قضى عليها المتوكل، والتي وقف فيها الإمام أحمد بن حنبل كالجبل الأشم مستعلياً بإيمانه على ترهات البشر مدافعاً عن الحق بعد مابقي وحيداً في الميدان، ولو أجاب تعريضاً أو تورية أومكرهاً لثُلم الإسلام ثَلْماً عظيماً لأن القضية من أصول الدين وبيانها يحتاج لفهم وذكاء، وثبات على الحَق، فالحمدلله الذي ثبّت الحق وأبطل الباطل، ولو كره المجرمون.

والقول بخلق القرآن ليس من المباحث المندرجة في هذه الرسالة، فيكفي أن نشير إلى الكتب التي عُنيت ببيان الحق فيه وهي مؤلفة على منهجين متباينين.

الأولَ : منهج عرض العقيدة الصحيحة من الكتاب والسنة، وأقوال الصحابة والتابعين. وذلك بعدما انتبه سلفنا الصالح للخطر الداهم عليها. . فعرضوها ليثبتوا ماأراد الزائفون هدمه ومن هذه الكتب:

١ - السنة للإمام أحمد بن حنبل(٢٤١) مطبوع.

٢- السنة لعبدالله بن أحمد بن حنبل (٢٩٠) طبع بتحقيق الدكتور محمد سعيد القحطاني في مجلدين.

٣ - السنة لأحمد بن هارون الخلال(٣١١) طبع بتحقيق الدكتور عطية الزهراني في ثلاثة أجزاء.

٤ - التوحيد للإمام ابن خزيمة(٣١١) طبع بتحقيق الدكتور عبدالعزيز الشهوان في مجلدين.

٥ - شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة لأبي القاسم اللالكائي(٤١٨) طبع بتحقيق الدكتور أحمد سعد الغامدي في أربعة مجلدات. وانظر كلام ابن تيمية عنه في مجموع الفتاوى١٢/ ٤١٩.

٦ - الإبانه الصغرى والكبرى لابن بطة العكبري(٣٨٧) وقد حقق الصغرى وجزء من الكبرى الدكتور رضا نعسان.

٧ - السنة لابن أبي عاصم النبيل(٢٨٧) وقد خرج أحاديثه محمد ناصر الدين الألباني وسماه «ظلال الجنه في تخريج السنة»/ المكتب الإسلامي. =

. . . . . .

= ٨ - الإيمان لمحمد بن إسحاق بن منده(٣٩٥)طبع بتحقيق الدكتور علي بن ناصر الفقيهي في مجلدين . . . . وغيرها .

هذا على سبيل التمثيل لا على سبيل التنصيص والحصر ، وإلا فالكتب المؤلفة في هذا الباب كثيرة وهذا يدل على عناية علماء الأمة سالفين وخالفين بصفاء العقيدة .

الثاني : منهج الرد على الشبه والأباطيل بعد عرض الشبه ثم تفنيدها بالأدلة النقلية والعقلية . ومن هذه الكتب :

١ - الرد على الجهمية والزنادقة للإمام أحمد بن حنبل مطبوع بتحقيق وتعليق عبدالرحمن عميرة .

٢ - خلق أفعال العباد والرد على الجهمية والمعطلة للإمام محمدبن إسماعيل البخاري(٢٥٦) مطبوع ونشرته الدار السلفية بتعليق بدر البدر .

٣- الرد على الجهمية لعثمان بن سعيد الدرامي (٢٨٠) مطبوع .

٤ - الرد على بشر المريسي لعثمان بن سعيد الدارمي(٢٨٠)مطبوع بتصحيح وتعليق العلاَّمة محمد حامد الفقي مجلد واحد .

٥ - الإختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمعطلة لعبداللَّه بن مسلم بن قتيبة(٢٧٦) طبع ضمن مجموعة عقائد السلف ص ٢٢١ باعتناء النشار والطالبي/ وطبع مستقلاً بتعليقات محمد زاهد الكوثري دون أن يذكر اسمه«نبه على ذلك الأستاذ حسام الدين القدسي وعَّد جملة من الكتب لم تعز إليه والقرائن تدل على أنها من أعماله ، وقد كشف خياناته وكذبه في ص ٧٥من كتاب التنكيل للمعلمي الطبعة الثانية المكتب الإسلامي ١٤٠٦هـ »، وطبع أخيرا بتحقيق محمود عمر .

٦ - الأسماء والصفات للبيهقي(٤٥٨) وهذا أيضاً بتعليقات الكوثري الذي تسلط على كتب السلف فأفسدها وتطاول على أصحابها وسأشير إلى أمثلة من ذلك بعد قليل انظر ص ٣٠١ حاشية(١) .

٧ - الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة لابن قيم الجوزية اختصره محمد الموصلي .

٨ - اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية لابن القيم . مطبوع

اكتفي بتلك المجموعة كإشارة وإلا فجهود الغيورين على الدين كثيرة جداً وقد أشرت إلى المطبوع منها حسب علمي ومن أراد التوسع ومعرفة المخطوط فليراجع الرسالة المستطرفة ص ٣٧ باعتناء حفيده محمد المنتصر ، وكذلك الفتوى الحموية لابن تيمية ص ٢٨ بتقديم محمد عبدالرزاق حمزة ، وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان ، وتاريخ التراث العربي لسزكين ، للوقوف على المخطوطات في العالم ، وقد امتلأت كتب ورسائل ابن تيمية وابن القيم والذهبي ، ومن تقدمهم من السلف الصالح بما يسلط الأضواء على هذه الفتن والرد عليها . وكانت كل هذه الجهود منصبة على اتباع السنة والعمل بها وترك ماحدث بعد الصدر الأول من البدع والأهواء .

١- أهل السنة والجماعة [١] ومنهجهم الاعتماد على الكتاب والسنة والاقتصار على النقل الصحيح.

٢ - الفرق الضالة من معتزلة وجهمية [٢] ومنهجهم الأخذ بسفسطة [٣] وتمويهات الفلاسفة، والإفراط في الاعتماد على العقل، وتعطيل وتأويل نصوص الوحيين.

وقد صور الإمام ابن قتيبة الدينوري [٤]- وهو أحد من عاصر المحنتين- حال المحدثين وفُرقتهم فقال : وكان آخر ماوقع من الاختلاف أمراً خص

---

(١) أهل السنة والجماعة وهم أتباع الرسول صلى اللّه عليه وسلم من الصحابة والتابعين ومن تبعهم وتمسك بهداهم، (والسنة) هي طريقة الرسول وطريقة أصحابة، (والسنة) الحكمة، والمراد بها أقوال الرسول وأفعاله وتقريراته ، فمن أخذ بها وعدل عن غيرها من أقوال المبتدعة فهو من أهل السنة، (والجماعة) الطائفة من الناس المجتمعة والمراد بها الذين اجتمعوا على سنة رسول اللّه دون ماسواها، وهم الفرقة الناجية وهم أهل الكتاب والسنة، انظر الأجوبة المفيدة على أسئلة العقيدة تأليف عبدالرحمن بن حمد الجُطَيْلي ص ٩ , ٨٦ , ٨٧.

(٢) الجهميَّة« أتباع الجهم بن صفوان السمرقندي أس الضلالة ورأس الجهمية، الذي كان صاحب ذكاء وجدال، وكان ينكر الصفات، ويقول بخلق القرآن، وأن اللّه في كل مكان، قتله سَلْم بن أحوز عام ١٢٨هـ لإنكاره أن اللّه كلم موسى »، ويرى القاسمي أنه قتله لأمر سياسي وليس كذلك. راجع السير٦/ ٢٦، تاريخ الجهمية والمعتزلة لجمال الدين القاسمي ص ١٦.

(٣) السفسطة« قياس مركب من الوهميات، والغرض منه تغليط الخصم وإسكاته» انظر التعريفات للجرجاني ص١١٨. ويحقق ابن تيمية رحمه اللّه القول في السفسطة« وأنها ليست كما ظن قوم أنها قول ومذهب عام لطائفة في كل حق، بل هي عارض لبني آدم في كثير من أمورهم، فكل من جحد حقاً وموه ذلك بباطل فهو مسفسط في هذا الموضع وإن كان مقراً بأمور أخرى وبّين أن أصل الكلمه معرب من (سوفسقيا) وأصبحت (سوفسطا) ومعناها يتضمن إنكار الحق وتمويهه بالباطل» بيان تلبيس الجهمية لابن تيمية١/ ٣٢٤ وانظر حاشية درء تعارض العقل والنقل٢/ ١٥.

(٤) هو العلامة الكبير ذو الفنون أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، حدث عن إسحاق بن راهويه، وأبي حاتم السجستاني وحدث عنه ابنه أحمد وابن درستويْه. قال الخطيب: كان ثقة فاضلاً، قال الذهبي: والرجل ليس بصاحب حديث، وإنما هو من كبار العلماء المشهورين عنده فنون جمة وعلوم مهمّة، ومات فجأة سنة٢٧٦، سير أعلام النبلاء ١٣/ ٣٠٠.

بأصحاب الحديث الذين لم يزالوا بالسنة ظاهرين وبالاتباع قاهرين، يُدَاجُون بكل بلد ولايُدَاجَون[1]، ويُسْتَتَر منهم بالنحل ولايستترون ويصدعون بحقهم الناس ولايستغشون، لايرتفع بالعلم إلا من رفعوا، ولايتضع فيه إلا من وضعوا، ولاتسير الركبان إلا بذكر من ذكروا. . . . إلى أن كادهم الشيطان بمسألة لم يجعلها اللّه أصلاً في الدين ولافرعاً، في جهلها سعة، وفي العلم بها فضيلة، فنمى شرها، وعَظُمَ شأنها حتى فرقت جماعتهم، وشتت كلمتهم ووهَّنت أمرهم، وأشمتت حاسديهم، وكفت عدوَّهم مؤنتهم بألسنتهم وعلى أيديهم فهو دائب يضحك منهم ويستهزىء بهم حين رأى بعضهم يكفر بعضاً ورآهم مختلفين وهم كالمتفقين، ومتباينين وهم كالمجتمعين، ورأى نفسه قد صار لهم سلماً بعد أن كان حرباً »[2].

وبعد محنة الإمام أحمد بن حنبل، وخبوت نار الفتنة التى ذهب ضحيتها طوائف من العلماء مابين قتيل أو مثقل بالحديد حتى تأتيه المنية، ومابين عشرات من العلماء أجابوا بالتورية والتعريض أو الخوف وبقي في نفوسهم ندم وحسرة من ذلك، بقي لهذه الأحداث أسوأ الذكريات وأشنع النتائج. . . وكانت الأجواء مليئة بالتحفظ الشديد إزاء كل مايحدث من أقوال وآراء تخالف معتقد سلف الأمة.

---

(١) يداجون: مأخوذ من قولهم: داجى الرجل: أي ساتره بالعداوة وأخفاها عنه فكأنه أتاه في الظلمة، وداجاه أيضاً: عاشره وجامله، ويقال: داجيت فلاناً إذا ماسحته على مافي قلبه وجاملته. والمداجاة: المداراة، والمداجاة: المطاولة. لسان العرب لابن منظور١٤/ ٢٥٠، أساس البلاغة لجار الله الزمخشري ص ١٢٦، تحقيق الأستاذ عبد الرحيم محمود، مختار الصحاح للرازي ص١٥٥، والمعنى أن أهل الحديث جمعوا صفات القوة والثبات فهم يَنْصرون ويَحْمون غيرهم ولايحتاجون لمن ينصرهم ويحميهم، وإن أرادوا المداراة والمجاملة مع غيرهم فعلوها ولايدَارَوْن ولايجاملون لوضوح وقوة منطلقاتهم.

(٢) الاختلاف في اللفظ ص ١١ بتعليق محمد زاهد الكوثري. وجدير بالأهمية أن ننبه ونحذر من تعليقاته وتحقيقاته إن جاز وصفها بذلك، فإنه وإن كان على جانب كبير من الاطلاع على =

ومع توالى الأيام نشأت مسألة كان الناس منها في عافية، فأصبحت بذرة من بذور الشقاق والوحشة بين علماء الحديث، وهى مسألة « اللفظ بالقرآن » هل هو مخلوق أم غير مخلوق ؟، والمسألة من الدقة والغموض بحيث إن تعيين المراد باللفظ والحكم عليه عسير يحتاج لتحفظ وبيان شديدين، فاختلفت أقوال العلماء كل بحسب مافهم من المسألة.

= كتب العلم، ودُرْبة على فنون الحديث إلا أنه استغل ذلك في الاستخفاف بسلفنا الصالح وكتبهم فشتمهم وتنقصهم، وأفسد كتبهم، ورمى كلام بعضهم ببعْض وحرَّف، ولفّق، وتجرأ على أفاضل الأمة بما يقشعر منه البدن، وتعلم مخالفته لمنهج السلف عليهم رضوان اللّه.

:- وسأكتفي في التمثيل لذلك بموضع واحد من تعليقه على الأسماء والصفات للبيهقي، ثم أُحيل القارىء برؤوس أقلام إلى مليء قد كفَى ووفَّى: ألا وهو كتاب العلامة اليماني عبدالرحمن المعلمي. التنكيل بما في تأنيب الكَوثري من الأباطيل، تحقيق الشيخ ناصر الدين الألباني.

أولاً : استخفافه، وشتمه دون حياء لإمام الأئمة محمد بن إسحاق بن خزيمة رحمه اللّه في أمر هو منقبة له، لامذمة وهو أنه لايحسن علم الكلام ولايراه وذلك قوله كما في الأسماء والصفات للبيهقي ص٢٦٧ دار إحياء التراث: « إذا كان العطار لايحسن غير ماهو فيه فما تنكرون على فقيه راوى حديث أنه لايحسن الكلام!! » قال الكوثري معلقاً على قول ابن خزيمة: « وقد انصف عن نفسه حيث اعترف أنه يجهل علم الكلام، وكان الواجب على مثله أن لايخوض في علم الكلام فتزل له قدم، ومع هذا الجهل ألفّ كتاب التوحيد فأساء إلى نفسه ومن أهل العلم من قال عنه : « إنه كتاب الشرك ». ومن جملة مخازيه فيه استدلاله على إثبات الرجل لله تعالى بقوله سبحانه « ألهم أرجل يمشون بها »؟ وهذا غاية في السقوط وأسقط منه من يسعى في إذاعة كتابة هذا ولله في خلقه شئون. . .الخ»وحط الكوثري بعده على عبدالرحمن ابن أبي حاتم لما تابع صاحبه ابن خزيمة انظر ذلك في حاشية ص ٢٦٩، وأترك التعليق للقارىء الكريم وأحيله على كتاب ابن خزيمة« التوحيد وإثبات صفات الرب »١/ ٢٠٢ بتحقيق الدكتور عبدالعزيز الشهوان ليقارن بين ماقاله الكوثري وبين ماكتبه وأراده ابن خزيمة من الآية الكريمة وقد بين أنه يريد إرغام أنوف المعطلة الجهمية الكافرين بصفات اللّه» ببيان أنهم أسوأ حالاً وكفراً من اليهود والنصارى والمجوس الذين هم كالأنعام، وهذا السوء الأسوأ يجعلهم عندهم كالانعام بل هم أضل، لأنهم بتعطيل صفات اللّه جعلوه عدماً. . . . » وقارن ذلك بما ذكره ابن كثير في تفسير الآية ص ١٩٥ من سورة الأعراف في تفسيره ٢/ ٢٧٧. وليس الأمر كما زعم الكوثري أنه يستدل بالآية على اثبات الرجل للّه، بل يكفي في اثبات الرجل له

سبحانه مارواه من الأحاديث الصحاح التي رواها البخاري ومسلم وغيرهما من وضع الرحمن قدمه في النار حتى تقول : قط قط . انظر التوحيد لابن خزيمة١/ ٢٠٧ .

ثانياً : إلماحات إلى تجنيه على أكابر فضلاء الأمة وردود المعلمي عليه فيها بالصفحات .

أ - شتمه للصحابي الجليل أنس بن مالك خادم رسول صلى عليه وسلم بأنه قد شاخ وكبر ، فخرف وروى عن النبي صلى عليه وسلم مالم يقله ولم يعمله ص ٦٠ , ٦٤ ، ص١٢٤ .

ب- إتهاماته للإمام أحمد بن حنبل : في ص ٣٦٦ حيث نفى عنه الغوص في الفقه والتمحيص! وانظر ص١٢٥ وفي ص ٣٦٧ اتهمه بالخطأ في اللغة والنحو ، وفي ص ٣٦٨ زعمه أنه تفقه أولاً على أبي يوسف ، وكان يستخرج الأجوبة الدقيقة من كتب محمد بن الحسن وفي ص ٣٧٠ زعم أن الإمام أحمد غير فقيه! مع قول الإمام الشافعي فيه : أنه أفقه أهل بغداد .

ج- طعونه المتنوعة في نسب وفصاحة وفقه الإمام الشافعي من ص ٦١٨/ إلى٦٥٦ .

د- بهته علي ابن المديني . بمسايرة ابن أبي دؤاد ص ٨٥٠ .

هـ- اتهامه محمد بن بشار(غندر) بالكذب وسرقة الحديث وهو ثقة جليل ص٦٦٠ .

و- قوله عن عبد الأعلى بن مسهر أبو مسهر الدمشقي : « إنه ممن أجاب في المحنة فترد روايته مطلقاً . . . . الخ أنظر ص ٥٣٦ .

ز- عندما ترجم الإمام البخاري في التاريخ الكبير للإمام أبي حنيفة وقال : كان(أبو حنيفة مرجئاً) سكتوا عنه ، وعن رأيه ، وعن حديثه . قال الكوثري : « إن إرجاءه محض السنة رغم تقولات جهلة النقلة . . . فالمعرض عنه إما خارجي يزكي مثل عمران بن حطان ، وحريز بن عثمان أو معتزلي قائل بالمنزلة بين المنزلتين» انظر ص٦٥٧ والرد عليه .

ح- قال عن صالح جزرة : « جزرة على سعة علمه في الحديث ، كان بذيء اللسان مداعباً أسوأ مداعبة . . » انظر كلام المعلمي ص ٤٩١ وتنسحب هذه المهزلة الجريئة التي لم يسبقه إليها أحد بهذا الكم وهذه الكيفية على فضلاء آخرين كابن أبي حاتم ص ٥٤٠ ، وابن بطة ص ٥٦١ ، وعثمان الدارمي ص٥٧٢ ، والدار قطني ص ٥٨٣ .

ويبدو أن هذه الوقفة قد طالت ، ومأطالها إلا أنَّهُ صعدت إلى شفتي ، فأبت إلا أن تسطر ، وهذا غيض من فيض مادونه المعلمي في طليعته ، ومحمد بهجة البيطار وعبد الرزاق حمزة وحسام الدين القدسي رحمهم تعالى في بيان حقيقته وكل ذلك في التنكيل للمعلمي فليراجع .

المبحث الثانـي

أولُ مَنْ أثـار المسألـة

وكما أسلفنا، فقد كان المجتمع الإسلامي يشدد النكير على من يخوض في علم الكلام، أو يجيب في مسألة خلق القرآن بخلاف الحق الذي أثر عن إمام أهل السنة والجماعة الإمام أحمد رحمه اللّه، أو أي مسألة تتعلق بها لما رآه الناس من الفتنة في الدين والنفس.

حتى جاء حسين بن علي الكرابيسي [1] المتكلم، وفتق هذه القضية الجديدة، والتي حاول الإمام أحمد أن يقضي عليها في مهدها، ويقي المسلمين شرَّها، إلا أن الرجل شعَّبها.

قال الإمام الذهبي في ترجمة الكرابيسي: «وهو أول من فتق اللفظ» [2]

أما مبدأ الأمر: فهو جرأة هذا المتكلم، ومخالفته المنهج الحق الذى ثبّته الإمام أحمد رحمه اللّه، بعد زوابع الجهمية والمعتزلة الباردة، والحق أقوى وأمضى. ويذكر العلماء في إثارتها روايتين بينهما تشابه كبير تجمعهما صفة العناد والتنمر على الإمام أحمد.

الرواية الأولى: والسبب فيها إخراج الكرابيسي لكتابه «المدلسين» الذي حط فيه على المحدثين وابن الزبير، فحذر منه الإمام، الأمر الذى أغضب الكرابيسي.

(١) هو الحسين بن علي الكرابيسي «نسبة إلى بيع الكرابيس وهي الثياب» اللباب لابن الأثير ٣/ ٨٨ كان إماماً جليلاً جامعاً بين الفقه والحديث، قال الخطيب: حديث الكرابيسي يعز جداً، وذلك أن أحمد بن حنبل كان يتكلم فيه بسبب مسألة اللفظ، وهو كان يتكلم في أحمد، فتجنب الناس الأخذ عنه لهذا السبب، وقال السبكي: كان الكرابيسي من متكلمي أهل السنة، أستاذاً في علم الكلام.. الخ قال ابن رجب: كان يتسلط بعلل الحديث ليطعن ويشكك في غير حديث أهل الحجاز.... مات سنة ٢٤٨، تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي ٨/ ٦٤، الثقات، لابن حبان ٨/ ١٨٩، السير، للذهبي ١٢/ ٧٩، ميزان الاعتدال، للذهبي ٢/ ٦٧، طبقات الشافعية، للسبكي ٢/ ١١٧.

(٢) السير ١٢/ ٨٠.

قال المروذي [1]: أول من أظهر مسألة اللفظ « حسين بن علي الكرابيسي » وكان من أوعية العلم، ووضع كتاباً في المدلسين، يحط على جماعة، فيه أن ابن الزبير من الخوارج، وفيه أحاديث يُقَوِّي به الرافضة. فأعلم أحمد فحذر منه، فبلغ الكرابيسي فتنمر، وقال: لأقولن مقالة حتى يقول ابن حنبل بخلافها فيكفر. فقال: لفظي بالقرآن مخلوق. قال المروذي في كتاب « القصص » فذكرت ذلك لأبي عبداللّه أن الكرابيسي قال: لفظي بالقرآن مخلوق، وأنه قال: أقول: إن القرآن كلام اللّه غير مخلوق من كل الجهات إلا أن لفظي به مخلوق، ومن لم يقل: لفظي بالقرآن مخلوق، فهو كافر. فقال أبو عبداللّه: بل هو الكافر قاتله اللّه!! وأي شيء قالت الجهمية إلا هذا؟ وماينفعه، وقد نقض كلامُهُ الأخير كلامَهُ الأول ؟! ثم قال: أيش خبر أبي ثور أوافقه على هذا؟ قلت: قد هجره. قال: أحْسَنَ، لن يفلح أصحاب الكلام» [2].

والرواية الأخرى: والسبب فيها أجوبته لسائل عن اللفظ بمايدل على عدم المبالاة بوجه الحق، وخالفه الإمام فيها، مما أغضبه.

قال أبو الطيب الماوردي: (جاء رجل إلى أبي علي الكرابيسي فقال: ماتقول في القرآن؟ فقال حسين الكرابيسي: كلام اللّه غير مخلوق، فقال له الرجل: فما تقول في لفظي بالقرآن؟ فقال له حسين: لفظك بالقرآن مخلوق! فمضى الرجل إلى أبي عبد اللّه أحمد بن حنبل فعرفه أن حسيناً قال له: إن لفظه

---

(١) هو الإمام القدوه شيخ الإسلام أبو بكر أحمد بن محمد بن الحجاج المروذي، كان أجل أصحاب الإمام أحمد، وكان يأنس به، وينبسط إليه " وهو الذي تولى إغماضه لما مات، وغسله " كان إماماً في السنة، شديد الاتباع له جلالة عجيبة ببغداد، خرج إلى الغزو فشيعه أهل بغداد إلى سامراء فجعل يردهم فلايرجعون، فحزروا بسامراء سوى من رجع، نحو خمسين ألفاً، فقيل له: يا أبا بكر إحمد اللّه فهذا علم قد نشر لك، فبكى وقال: ليس هذا العلم لي، إنما هو لأبي عبد اللّه " سير أعلام النبلاء١٣/ ١٧٣.

(٢) السير ١١/ ٢٨٩.

بالقرآن مخلوق، فأنكر ذلك وقال : هي بدعة، فرجع الرجل إلى حسين الكرابيسي فعرفه إنكار أبي عبداللّه أحمد بن حنبل لذلك وقوله هي بدعة .

فقال له حسين: تلفظك بالقرآن غير مخلوق، فرجع إلى أحمد بن حنبل فعرفه رجوع حسين وأنه قال تلفظك بالقرآن غير مخلوق! فأنكر أحمد بن حنبل ذلك أيضاً وقال هذا أيضاً بدعة، فرجع الرجل إلى أبي علي حسيّن الكرابيسي فعرفه إنكار أبي عبداللّه أحمد بن حنبل وقوله هذا أيضاً بدعة فقال حسين: « إيش نعمل بهذا الصبي ! إن قلنا مخلوق قال: بدعة وإن قلنا غير مخلوق قال: بدعة» فبلغ ذلك أبا عبداللّه فغضب له أصحابه فتكلموا في حسين، وكان سبب الكلام في حسين والغمز عليه بذلك. (١)

ومهما يكن من سبب لإثارة المسألة، فإنَّ الكرابيسي قد ألقى أقوالاً مجملة مشتبهة تشتمل حقاً وباطلاً ليوقع الإمام أحمد بزعمه « في مأزق القول بخلافها » ولكن الإمام أحمد رحمه اللّه تعالى كان أذكى بكثير وأبعد نجعة من مراد الكرابيسي، إذ إنه كان يعلم أن الحق في (كلا القولين متلبساً به الباطل) وللوقوف على الحق وفصله عن الباطل لابد من التفصيل في الجواب ومن هنا جاء تبديع الإمام أحمد للكرابيسي (فقال هذه بدعة) ومقصوده تكلمه في مسائل الكلام وجوابه الإجمالي عن مسالة اللفظ. (إما بالخلق أو عدمه) ولذا يقول تاج الدين السبكي: « . . . وهذا يدلك على مانقوله، من أن أحمد إنما أشار بقوله : « هذه بدعة » إلى الكلام في أصل المسألة، وإلا فكيف ينكر إثبات الشيء ونفيه! » (٢). وسنأتي بعد قليل على إيضاح هذه المعاني (٣).

وكان موقف الإمام أحمد رحمه اللّه تعالى موقف العالم المستبصر، الذي بنى أقواله وأفكاره على منهج اللّه. الثابت تجاه المستحدثات في المجتمع، مما

(١) تاريخ بغداد ٨/ ٦٤، سير أعلام النبلاء ١٢/ ٧٩.

(٢) طبقات الشافعية٢/ ١١٩.

(٣) في المبحث الثالث المطلبين الثاني والثالث.

يلقيه أعداء الإسلام باسم الإسلام " كفتنة خلق القرآن " أو مما يصعب فهمه من الأمور العقائدية وغيرها " كمسالة اللفظ هذه " . . . فإن المجتمع احتار أيضاً في هذه المسالة، لجدتها وصعوبة تعيين المراد من اللفظ (هل هو صوت القارىء، أم المقروء المسموع وهو كلام اللّه؟) فكان طلبة العلم يقصدون الإمام أحمد ليرشدهم إلى الصواب ، ويبين لهم الحق.

قال أبو جعفر محمد بن الحسن بن هارون الموصلي : سألت أبا عبداللّه أحمد بن حنبل وقلت: « ياأبا عبداللّه أنا رجل من أهل الموصل والغالب على أهل بلدنا الجهمية وفيهم أهل سنة نفر يسير يحبونك وقد وقعت مسألة الكرابيسي، نطقي بالقرآن مخلوق، فقال لي أبو عبداللّه: إياك إياك إياك إياك وهذا الكرابيسي لاتكلمه ولاتكلم من يكلمه أربع مرات أو خمس مرات !!، قلت: ياأبا عبداللّه فهذا القول عندك وماتشعب منه يرجع إلى قول جهم؟ قال : هذا كله من قول جهم »[1].

وقال الفضل بن زياد : سألت أبا عبداللّه عن الكرابيسي وماأظهره فكلح وجهه ثم أطرق!! ثم قال : هذا قد أظهر قول جهم، قال تعالى ﴿ **وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله** ﴾[2] فمن يسمع ؟ وقال النبي صلى اللّه عليه وسلم « فله الأمان حتى يسمع كلام اللّه » إنما جاءهم بلاؤهم من هذه الكتب التي وضعوها، تركوا آثار رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وأصحابه وأقبلوا على هذه الكتب »[3]. وقال أبو طالب[4]: سمعت أبا عبداللّه يعنى

(١) تاريخ بغداد ٨/ ٥٦٥، الكامل في الضعفاء / ٢/ ٣٦٥.

(٢) التوبة آية ٦ .

(٣) تاريخ بغداد٨/ ٦٦ .

(٤) هو أحمد بن حميد، أبو طالب المشكاني صاحب أبي عبداللّه أحمد بن حنبل ، ،روى عن أحمدمسائل تفرد بها، قال أبو بكر الخلال: أبو طالب صحب أبا عبداللّه قديماً إلى أن مات، وكان أبو عبداللّه يكرمه ويقدمه، وكان رجلاً صالحاً فقيراً صبوراً على الفقر، فعلمه أبو عبداللّه مذهب القنوع والاحتراف ومات قديماً بالقرب من موت أبي عبداللّه. وقال ابن نافع: مات سنة أربع وأربعين ومائتين. طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى ١/ ٣٩.

أحمد بن حنبل يقول : « مات بشر المريسي، وخلفه حسين الكرابيسي[1]. فمن النصوص السابقة تَبَيَّن لنا مدى صلابة مواقف الإمام أحمد من الكرابيسي، ومن أي قضية تطرأ تخالف منهج السلف الصالح سواء : في المعتقد، أو طريقة التعامل معها، أو الفتوى فيها، كما حصل من الكرابيسي عندما سأله الرجل، فالإمام أحمد لم يقل بخلاف مقالة الكرابيسي حتى يقع في المحظور ولاغيره من الأئمة، لأنهم يعرفون وجه الحق في المسألة « وهو أن القراءة فعل من أفعال العباد، وأفعال العباد مخلوقة » ولكنهم كانوا حريصين على العقيدة من أن يكدر صفاءها أمرٌ يثير البلبلة في المجتمع لأن اللّه لم يكلفهم ذلك، فيكفي ويسع الناس ماوسع سلفهم « من أن القرآن كلام اللّه منزل غير مخلوق» ومن هنا جاء تحذير الإمام أحمد وغيره [2] من الكرابيسي ومن سار مساره، لأنهم يفتحون أبواباً من الجدل والشُقّة والخلاف، وهو ماحصل بالفعل، فقد اختلف الناس واحتاروا زمن الإمام أحمد رحمه اللّه، وأثر عنه أقوال ومواقف فهمها من فهمها، وجهلها من جهلها، وتابعها بحذو القذة من تابعها. وازداد اختلاف الناس بعد وفاته، واشتد بنيسابور بين البخاري والذهلي « ويذكر ابن القيم رحمه اللّه أن الاختلاف فيها استمر إلى زمانه » [3].

---

(١) تاريخ بغداد/ ٨/ ٦٦.

(٢) - منهم أبو حاتم محمد بن إدريس الرازي، ذكر اللالكائي عقيدته وفيها« . . . وترك النظر في كتب الكرابيسي ومجانبة من يناضل عنه من أصحابه، مثل داود الأصبهاني وأشكاله ومتبعيه . . . الخ » شرح أصول اعتقاد أهل السنة ١/ ١٨٠. ومنهم العلامة ابن رجب الحنبلي الذي كشف جوانب من كتابه «المدلسين» ومافيه من شرور فقال: وقد تسلط كثير ممن يطعن في أهل الحديث عليهم بذكر شيء من هذه العلل. وكان مقصوده بذلك الطعن في الحديث جمله والتشكيك فيه. أو الطعن في غير حديث أهل الحجاز، كما فعله حسين الكرابيسي في كتابه الذي سماه بكتاب المدلسين، وقد ذكر كتابه هذا للإمام أحمد فذمه ذماً شديداً، وكذلك أنكره عليه أبو ثور وغيره من العلماء. أهـ
شرح علل الترمذي ٢/ ٨٩٢ بتحقيق د٠همام، ٢/ ٨٠٦ بتحقيق د٠ العتر.

(٣) قال ابن قيم الجوزية مشيراً إلى استمرار الاختلاف في مسألة اللفظ إلى زمانه: « والحرب واقعة بين هذين الفريقين من بعد موت أحمد إلى الآن. . . . الخ» مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، اختصار محمد الموصلي، ص ٤٤٠.

المبحث الثالث

إلقاء الضوء على مسألة اللفظ واللفظية

المطلب الأوّل

تعريف اللّفظ واللفظيَّة

اللفظ (أ) جاء في لسان العرب : « واللفظ واحد الألفاظ، وهو في الأصل مصدر، ولفظ بالشيء يلفظ لفظاً: تكلم، وفي التنزيل العزيز ﴿ **مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد** ﴾[1]. ولفظ بالكلام وتلفظت به أي تكلمت به »[2].

(ب) وقال الفيروز أبادي : « لفظه رماه فهو ملفوظ ولفيظ وبالكلام نطق كتلفظ »[3].

(ج) وقال ابن هشام : « والمراد باللفظ : الصوت المشتمل على بعض الحروف »[4]. [5]

---

(١) سورة ق آية ١٨ .

(٢) لسان العرب ٧/ ٤٦١ .

(٣) القاموس المحيط ٢/ ٣٩٩ .

(٤) شرح قطر الندى وبل الصدى ص ١٣ .

(٥) ولم يجوّز الإمام أبو الحسن الأشعري أن نقول ' لفظت بالقرآن، بل قرأت وتلوت، وعلل ذلك بمايلي :

أولاً : «أن العرب اذا قال قائلهم : لفظت باللقمة من فمي، معناه : رميت بها، وكلام الله عز وجل لايقال يلفظ به» . الإبانه عن أصول الديانةص٨١، ومع صحة كلامه رحمه الله من حيث استعمال العرب لهذه الكلمة إلا أنه ورد في المعاجم أنه يراد باللفظ الكلام والنطق كما أشرت إليها آنفاً وَدَلَّتْ عليه الآية الكريمة . =

قال ابن تيمية رحمه اللّه تعالى : « واللفظ في الأصل مصدر لفظ يلفظ لفظاً، وكذلك التلاوة والقراءة مصدران، لكن شاع استعمال ذلك في نفس الكلام الملفوظ المقروء المتلو، وهو المراد باللفظ في إطلاقهم وهو نفس الحروف المنطوقة » (١).

واللفظية هم « من قالوا : لفظي بالقرآن مخلوق » .

وقد اشتهر عن السلف الصالح كأحمد بن حنبل وهارون الفروي وجماعة أئمة الحديث « أن اللفظية جهمية »(٢) وقال أئمة السنة : « من قال لفظي بالقرآن غير مخلوق فهو مبتدع »، يعنون غير بدعيَّة الجهمية (٣).

= ثانياً : «بأن قوماً قالوا : لفظنا بالقرآن : ليثبتوا أنه مخلوق، ويزينوا بدعتهم، وقولهم بخلقه، فدلسوا كفرهم على من لم يقف على معناهم» الإبانة ص ٨٢ وكلامه هذا أيضاً صحيح، فإن بعض القائلين بأن اللفظ مخلوق تدرجوا به للقول بخلق القرآن، لذا جهمهم الإمام أحمد وجمعٌ من علماء السلف كما سيأتي معنا، ولكن بما أن الكلمة في أصلها اللغوي صحيحة، وقد تداولها علماء السلف منذ بزوغ هذه الفتنة دون نكير منهم، فلا بأس باستخدامها .

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية، جمع وإعداد عبد الرحمن بن قاسم وابنه محمد ١٢/ ٣٠٦، ٥٦٧ .

(٢) كون الإمام أحمد يجهم اللفظية فإنه لايكاد يطلق القول بكفرهم كما يطلقه على المخلوقية القائلين بخلق القرآن كما قال ذلك ابن تيمية . راجع مجموع الفتاوى ١٢/ ٢٠٦ وسيمر بنا ذلك عند كلام ابن تيمية على اللفظ .

(٣) معارج القبول للشيخ حافظ الحكمي ١ / ٢٥٣، وانظر تعريف الإمام أحمد الذي نقله عنه البخاري ، مجموع الفتاوى ١٢/ ٣٦٦.

المطلب الثاني

مقالة الإمام أحمد " من قال لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي ومن قال غير مخلوق فهو مبتدع " ومراده بها

انتشرت أقوال الكرابيسي في المجتمع الإسلامي، واشتهرت مواقفه المتأرجحة المتميعة في مسألة اللفظ، ووجدت فيها الجهمية بُغْيَتَها، وخبَّت في ذلك وَوَضَعَت، وقالت ومن تابعها قولة حَق وأرادت بها باطلاً، فقالوا: « لفظنا بالقرآن مخلوق » وأرادوا الملفوظ المسموع الذى هو كلام اللَّه تعالى المنَزَّل . . . . وقد كان الجهمية يمثلون أغلبية السكان في بعض المدن كما في رواية أبي جعفر الموصلي السابقه ٣٠٧ وأهل السنة قلّة مما يشكل خلخلة وتهديداً لتلك النواحى.

وقد تنبه الإمام أحمد رحمه اللَّه لمراد الجهمية، وأدرك ما في كلا القولين اللذين أطلقهما الكرابيسي من حق وباطل. . وأنه ستزل فيه أقدام، وتضل فيه عقول عن مظان الحق، لذا أطلق هذه المقوله: -

" من قال لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي، ومن قال غير مخلوق فهو مبتدع " (١)

وأصبحت هذه المقوله قاعدة في الذب عن المنهج الصحيح في هذه القضية، ليرتاد الناس السلامه في دينهم وسط زوبعة البدع المستحدثة.

---

(١) وقد تعجَّب ابن قتيبة الدينوري من مقولة مقاربة لهذه نسبت لأحمد وشك في نسبتها إليه، ونص هذه المقوله هو: «من زعم أن القراءة مخلوقة فهو جهمي والجهمي كافر، ومن زعم أنها غير مخلوقة فهو مبتدع وكل بدعة ضلالة" الاختلاف في اللفظ ص ٤٦ وقد تكون هذه الصيغة لم تثبت عنه بالفعل، لأن فيها إطلاقاً بتكفير الجهمي القائل بخلق القراءة والجهميَّة كما سيمر بنا ثلاث فرق: =

قال الإمام ابن قيم الجوزية: « وهذا المنع من النفي والاثبات من كمال علمه باللغة وتحقيقه لهذا الباب »(١).

وهذه توجيهات بعض العلماء لهذا المنع وكشفهم النقاب عن سرِّه:

أولاً: قال ابن تيمية رحمه اللّه: « لما ظهر القول بأن القرآن كلام اللّه غير مخلوق، وأطفأ اللّه نار الجهمية المعطلة صارت طائفة يقولون: إن كلام اللّه الذي أنزله مخلوق، ويعبرون عن ذلك باللفظ، فصاروا يقولون: ألفاظنا بالقرآن

=(أ) المخلوقية « القائلين بخلق القرآن ».

(ب) الواقفية « الذين لايقولون مخلوق ولاغير مخلوق ».

(ج) اللفظية « القائلين بأن لفظهم وقراءتهم للقرآن مخلوقة ».

وتكفير الصنفين الأولين أمر يكاد يكون مستفيضاً عند جميع أئمة السنة، أما اللفظية فإن ابن تيمية يقول: « وعامة كلام أحمد إنما هو يجهم اللفظية لايكاد يطلق القول بتكفيرهم كما يطلقه بتكفير المخلوقية» مجموع الفتاوى "١٢/ ٢٠٦. فإن كان هذا هو وجه استنكار ابن قتيبة لهذه المقولة وبتلك الصيغة، فلا بأس بذلك فإني لم أجد من ذكرها غيره رحمه اللّه، وإن كان مقصده أن الإمام أحمد لم يصدر منه تجهيم لمن يقول بخلق اللفظ، ولاتبديع لمن يقول بعدم خلقه. وهذا هو الاقرب والدليل على ذلك قوله بعد ذلك « فكيف يتوهم على أبي عبداللّه مثل هذا القول وأنت تعلم أن الحق لايخلو من أن يكون في أحد الأمرين.. الخ » الإختلاف في اللفظ ص ٤٧.

أقول: إن كان هذا مقصده رحمه اللّه فلا نسلم له به لاستفاضة هذا الموقف عن الإمام أحمد استفاضة لاتدع مجالاً للشك كما ذكر ابن القيم في مختصر الصواعق المرسلة ص ٤٣٧.

ومن يتتبع بعض المواطن التي نسبت فيها هذه المقالة وهذا الموقف للإمام أحمد يدرك وجاهتها وما فيها من سد ذريعة لأمور خطيرة. وهذه بعض تلك المظان على سبيل المثال: - مجموع الفتاوى لابن تيمية١٢/ ٧٤, ١٧٠, ٢٦٣، ونسبها إليه أيضاً وذكر أنها الصواب عند جماهير أهل السنة في ١٢/ ٥٧٣، وبين أنها المنصوص عنه وعن أصحابه في ١٢/ ٢٣٨، ونقلها كذلك في الفتاوى١٢/ ٣٢٥، عن أبي بكر محمد بن هارون الخلال الذي اعتنى بعلم الإمام أحمد وجمع نصوصه وأقواله في جميع أبواب الدين.

وتَوَّج بها ابن قيم الجوزية موقف البخاري وأحمد من تلك الزوبعة، مختصر الصواعق المرسلة، ص٤٤٠أهـ.

(١) مختصر الصواعق المرسلة ص ٤٣٩.

مخلوقة، أو تلاوتنا أو قراءتنا مخلوقة، وليس مقصودهم مجرد كلامهم، وحركاتهم بل يدخلون في كلامهم نفس كلام اللّه الذى نقرأ بأصواتنا وحركاتنا، وعارضهم طائفة أخرى ، فقالوا: ألفاظنا بالقرآن غير مخلوقة، فرد الإمام أحمد على الطائفتين وقال: « من قال لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي، ومن قال غير مخلوق فهو مبتدع »(١).

ثانياً : ومن أوضح هذه التوجيهات ماذكره شيخ الإسلام أبو عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن الصابوني(٢) معقباً على كلام الإمام محمد بن جرير الطبري (٣) في كتابه الاعتقاد الذي صنفه في هذه المسألة وفيه بيَّن متابعته التامَّة لإمام أهل السنة والجماعة أحمد بن حنبل واعتبار أن قوله وموقفه فيه الغنى والشفاء لقيامه مقام الأئمة الأول، وبهذا نفى عن نفسه مارمى به من عدول عن السنة فبعد أن نقل الإمام الصابوني هذه المقولة من طريق محمد بن جرير

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٧/ ٦٥٥ .

(٢) هو شيخ الإسلام أبو عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن النيسابوري الصابوني نسبة إلى عمل الصابون وبيعه، انظر اللباب لابن الأثير ٢/ ٢٢٨، ولد سنة ٣٧٣هـ كان حافظاً، كثير السماع والتصانيف حريصاً على العلم، مجمع على أنه عديم النظير، وسيف السنة، ودافع البدعة، توفي سنة ٤٤٩ ، «المنتخب من السياق لتاريخ نيسابور »تصنيف الإمام عبد الغافر الفارسي، وانتخاب إبراهيم بن محمد الصريفيني، ص١٣١ ، سير أعلام النبلاء ١٨/ ٤٠ .

(٣) هو محمد بن جرير بن يزيد الإمام العالم المجتهد ولد سنة ٢٢٤هـ، كان ثقة، صادقاً، حافظاً رأساً في التفسير، إماماً في الفقه والإجماع والاختلاف، علاَّمة في التاريخ وأيام الناس، له من الكتب المطبوعة، تاريخ الأمم والملوك، وتهذيب الأثار واختلاف الفقهاء، وجامع البيان في تفسير القرآن، كان قد وقع بينه وبين ابن أبي داود، وكان كل منهما لاينصف الآخر، وكانت الحنابلة حزب أبي بكر ابن أبي داود، فكثروا وشغبوا على ابن جرير ،وناله أذى، ولزم بيته ، وكان على منهج السلف في عقيدته، توفي سنة ٣١٠ هـ ، راجع ترجمته في تاريخ بغداد ٢/ ١٦٢-١٦٩ ، سير أعلام النبلاء ١٤/ ٢٦٧ .

قال : «والذى حكاه عن أحمد رضي اللّه عنه وأرضاه أن اللفظية جهمية فصحيح عنه » وإنما قال ذلك لأن جهماً وأصحابه صرّحوا بخلق القرآن ، والذين قالوا باللفظ تدرجوا به إلى القول بخلق القرآن وخافوا أهل السنة في ذلك الزمان من التصريح بخلق القرآن ، « فأدرجوه في هذا القول ذي اللبّس لئلاّ يُعدُوا في زمرة جهم الذين هم شياطين الإنس يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً » فذكروا هذا اللفظ وأرادوا به أن القرآن بلفظنا مخلوق ، فلذلك سماهم الإمام أحمد جهمية وحكي عنه أيضاً أنه قال : اللفظية شر من الجهمية ، وأما ماحكاه محمد بن جرير رحمه اللّه أن « من قال لفظي غير مخلوق فهو مبتدع » فإنما أراد به أن السلف الصالحين من أهل السنة لم يتكلموا في باب اللفظ ولم يحوجهم الحال إليه ، وإنما حدث الكلام في اللفظ من أهل التعمق وذوى الحمق الذين أتوا بالمحدثات وبحثوا عما نهوا عنه من الضلالات وذميم المثالات ، وخاضوا فيما لم يخض فيه السلف من علماء الإسلام ، فقال الإمام أحمد هذا القول في نفسه بدعة ، ومن حق المتدين أن يدعه « وكل بدعة مبتدعة » ولايتفوه به ولا بمثله من البدع المبتدعة ، ويقتصر على مقالة السلف المتبعة أن القرآن كلام اللّه غير مخلوق ولايزيد عليه إلا تكفير من يقول بخلقه [1] .

ثالثاً : قال ابن القيم رحمه اللّه في توجيه منع الإطلاقين : « والذى قصده أحمد أن اللفظ يراد به أمران » :-

(أ) الملفوظ نفسه وهو غير مقدور للعبد ولافعل له .

(ب) التلفظ به والأداء له وفعل العبد . فإطلاق الخلق على اللفظ قد يوهم المعنى الأول وهو خطأ ، وإطلاق نفي الخلق عليه قد يوهم المعنى الثاني وهو خطأ ، فمنع الإطلاقين " [2] .

---

(١) عقيدة السلف أصحاب الحديث/ أو الرسالة في اعتقاد أهل السنة وأصحاب الحديث والأئمة ص١٠ تحقيق بدر البدر ، وهي ضمن الرسائل المنيرية١/ ١٠٥ .

(٢) مختصر الصواعق المرسلة ص ٤٣٩ .

وهذا مما لاشك فيه من فقهه رحمه اللَّه لواقعه ومجتمعاته آنذاك : فما أنَ استراحت النفوس من المصيبة الصَّماء فتنة خلق القرآن حتى انفتحت فتن أخرى فيها من الغموض والدِّقة ماقد يخفى على العلماء فضلاً عن عامّة الناس وطلبة العلم. فاكتفى رحمه اللَّه بهذه القاعدة، ليجنب الناس شروراًكثيرة في عقائدهم، وليكتفوا بفهم « أن القرآن كلام اللَّه غير مخلوق » ولايتجهموا باعتقاد أن اللفظ بالقرآن مخلوق، فيدخلوا كلام اللَّه ضمن اللفظ الذى هو فعل العبد فيقعوا في المحظور العظيم، ولايبتدعوا ويضلوا باعتقاد « أن اللفظ غير مخلوق» لأن في ذلك عُدُولاً عن منهج السلف الصالح، ويوهم أن أفعال العباد وأصواتهم غير مخلوقة.

قال ابن تيمية رحمه اللَّه : (فلهذا منع أئمة السنة الكبار إطلاق هذا وهذا، وكان هذا وسطاً بين الطرفين وكان أحمد وغيره من الأئمة يقولون : « القرآن حيث تصرف كلام اللَّه غير مخلوق » فيجعلون القرآن نفسه حيث تصّرف غير مخلوق، من غير أن يقترن بذلك ما يشعر بأن ألفاظ العباد وصفاتهم غير مخلوقه) (١).

وهذا الذي أراده الإمام أحمد وهو تجنيب المسلمين الشقاق والفرقة، ومحافظتهم على سلامة العقيدة ، قد وقع خلافه، إذ نشأت طائفتان تعلقت إحداهما بأحد قوليه ونسبته إليه، وتعلقت الأخرى بالقول الآخر وادّعت أن أحمد قاله، وادّعاه الجميع فإنه بعد الفتنة أصبح إماماً وقدوة لجميع الطوائف، وكان رحمه اللَّه يغضب أشد الغضب إذا بلغه أن إحدى الطائفتين تنسب إليه أحد القولين. (٢)

---

(١) درء تعارض العقل والنقل ١/ ٢٦٥.

(٢) ويروى عنه رحمه اللَّه تعالى في ذلك قصص منها " موقفه من أبي طالب، وابن شداد " وسيأتي سرد القصتين ص ٣٣٠-٣٣١.

ومن الضروري والواجب أن أقرر هنا أن هذا الموقف من الإمام أحمد ليس هو خلاصة عقيدته في اللفظ بالقرآن، يتبين ذلك من آخر كلام ابن تيمية السابق وفحواه أن الإمام أحمد يعتقد أن ألفاظ العباد وصفاتهم مخلوقة.

وإنما هو «**أولاً**» وقفة حازمة ولازمة في مثل تلك الظروف والفتن التي تعصف بالأمة في صلب دينها، وقد استقر بالفطرة عند المجتمعات قبل هبوب هذه العاصفة أن كل ماله علاقة بالمخلوق فهو مخلوق، فلما نشأت هذه القضية أراد الإمام أحمد أن يثبت الناس على ما استقر لديهم، ويرسم لهم موقفاً لاتزل فيه الأقدام بعدم إطلاق القول بخلق اللفظ أو عدم خلقه لما في الجانبين من حق وباطل.

« **ثانياً** » ومن جهة أخرى فَإنَّ المجتمع ليس على شاكلة واحدة من سلامة العقيدة والرغبة في معرفة الحق واعتناقه، فإن فيه من يتربص بالمسلمين الدوائر، وفيه من تنطلي عليه شبه المعطلين، وفيه المريد للحق والخير، وأغلب هؤلاء يصعب عليه إدراك وجه الحق في مثل هذه القضية لدقتها وغموضها، ومنهم من يدركه ويتنكب عنه إلى الباطل، . . . فكان هذا الموقف الصارم منه رحمه اللّه سداً لباب الكلام في القضية لئلا يتذرع به إلى أقوال فاسدة ومعتقدات باطلة.

المطلب الثالث
نشأة القضية ... وسبب الاشتباه
ووجه الحق في ذلك

لبيان موضع الاشتباه وسببه . . نقطتف من أقوال أئمة الإسلام بعضَ مايوقفنا على ذلك، وقد عَيَّنْتُ واخترت اثنين ممن عُنُوا بالبيان المفصَّل أكثر من غيرهم، وراعيت في الاختيار البعد الزمني والإختلاف في الأسلوب : وهما الإمام عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري [1] الذى عاصر الفتنتين وواكب الأحداث، والإمام تقي الدين ابن تيمية، ولعلَّ تأخره الزمني قد مكنه من هضم كتب السالفين، أضف إلى ذلك فرط ذكائه وروعة استنباطاته وتحليلاته مما يجعل المرء يحط رحال التطواف عند كنوزه ومكنوناته .

وسأشير في الهامش إلى جهود متضافرة كلّها هبَّت لإزالة الالتباس، وتقرير الصواب تركت إثباتها خوف الاسهاب والملال [2] .

أولاً : الإمام ابن قتيبة :

كان بيان الإمام ابن قتيبة لسبب الاشتباه موسعاً وعميقاً . . . ومؤيداً بالأدله . . . وكان حلُّه لرموز هذا الاشتباه واضحاً جلياً ومدعماً بالأمثلة :

قال رحمه اللَّه بعد تصويره لحال أهل الحديث وتشانئهم وإكفار بعضهم بعضاً : «وليس مااختلفوا فيه ممايقطع الألفة ولاممّا يوجب الوحشه لأنهم مجمعون

---

(١) سبقت ترجمته ص ٢٠٨ .

(٢) مثل ماذكره الإمام الذهبي في مواضع كثيرة من ترجمته لأعلام النبلاء ومن ذلك ماقاله في ترجمة داود الأصبهاني في السير ١٣/ ١٠١ ، وانظر مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم ص ٤٣٥ ، وانظر الأسماء والصفات للبيهقي، باب الفرق بين التلاوة والمتلو ص ٢٦٤ ، وانظر عقيدة السلف أصحاب الحديث لأبي إسماعيل الصابوني، ضمن الرسائل المنيرية ١/ ١٠٥ ، وقد حققها مستقلة بدر البدر، وانظر تعليقات السبكي في طبقات الشافعية عند ترجمته للبخاري والذهلي . . . الخ .

على أصل واحد وهو «القرآن كلام اللّه غير مخلوق» في كل موضع وبكل جهة، وعلى كل حال، وإنما اختلفوا في فرع لم يفهموه لغموضه ولطف معناه فتعلق كل فريق منهم بشعبة منه ولم يكن معهم آلة التمييز ولافحص النظارين ولاعلم أهل اللغة.

فاذا فكر أحدهم في القراءة وجدها قد تكون قرآناً لأن السامع يسمع القراءة وسامع القراءة سامع للقرآن وقال اللّه عز وجل﴿ **فاستمعو له** ﴾ (١) وقال﴿**حتى يسمع كلام الله**﴾(٢) ووجدوا العرب تسمي القراءة قرآناً، قال الشاعر في عثمان بن عفان رضي اللّه عنه:

ضحو بأشمط عنوان السجود به يقطع الليل تسبيحاً وقرآنا (٣)

أي تسبيحاً وقراءة وقال أبو عبيد يقال: قرأت قراءة وقرآناً بمعنى واحد فجعلها مصدرين لقرأت وقال تعالى﴿ **وقرآن الفجر إنّ قرآن الفجر كان مشهوداً**﴾ (٤) أي قراءة الفجر فيعتقد من هذه الجهات أن القراءة هي القرآن غير مخلوق.

ويفكرآخر في القراءة فيجدها عملاً لأن الثواب يقع على عمل لا على أن قرآناً في الأرض، ويجد الناس يقولون: قرأت اليوم كذا وكذا سورة، وقرأت في تقدير فعلت كما تقول: ضربت وأكلت وشربت، ونجدهم يقولون: قراءة فلان أحسن من قراءة فلان، إنما يريدون أداء فلان للقرآن أحسن من أداء فلان، وقراءة فلان أصوب من قراءة فلان، وإنما يراد في جميع هذا العمل، لأنه لايكون قرآن أحسن من قرآن، فيعتقد من هذه الجهة أن القراءة عمل وأنها غير القرآن،

---

(١) سورة الأعراف ٢٠٤.

(٢) سورة التوبه ٠٦

(٣) من مرثية حسان بن ثابت في أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى اللّه عنهما، انظر شرح ديوان حسان بن ثابت، وضع وتصحيح عبدالرحمن البرقوقي ص ٤٦٣.

(٤) سورة الإسراء ٧٨.

وأن من قال « القراءة غير مخلوقة » فقد قال : إن أفعال العباد غير مخلوقة . . . فلما وقعت هذه البلية فزع الناس إلى علمائهم وذوي الرأي فيهم فاختلفوا عليهم . . . . [1].

ثم تطرق رحمه اللّه إلى أقوال في المسألة وزاد بياناً لهذه المعضلة وأثرها في المجتمع ثم عاد مرة أخرى ليبين وجه الحق والصواب فيها :-

قال : وعدل القول فيما اختلفوا فيه من القراءة واللفظ بالقرآن أن القراءة لفظ واحد يشتمل على معنيين أحدهما عمل والآخر قرآن، إلا أن العمل لايتميز من القرآن كما يتميز الأكل من المأكول، فيكون المأكول المضوغ والمبلوع، ويكون الأكل والمضغ والبلع، والقرآن لايقوم بنفسه وحده كما يقوم المأكول بنفسه وحده، وانما يقوم بواحدة من أربع : كتابة، أو قراءة، أو حفظ، أو استماع .

فهو بالعمل [أ] في الكتابة قائم والعمل خط وهو مخلوق ، والمكتوب قرآن وهو غير مخلوق .

وهو بالعمل [ب] في القراءة قائم والعمل تحريك اللسان واللهوات بالقرآن وهو مخلوق، والمقروء قرآن وهو غير مخلوق .

وهو بالعمل [ج] بحفظ القلب قائم في القلب والحفظ عمل وهو مخلوق، والمحفوظ قرآن وهوغير مخلوق .

وهو بالعمل [د] بالاستماع قائم في السمع والاستماع عمل وهومخلوق، والمسموع قرآن وهو غير مخلوق[2] .

---

(١) الاختلاف في اللفظ ص ٤٣ .

(٢) المصدر السابق ص ٥٢ .

ويزيدنا ابن قتيبة رحمه اللّه بياناً لهذه القضية وذلك بضرب الأمثلة فيقول :

فإن قال قائل : ما تقول في القراءة ؟ قلت : قرآن متصل بعمل ، فإن قال : أمخلوق هو أم غير مخلوق ؟ قلت له : سألت عن كلمة واحدة تحتها معنيان ، أحدهما مخلوق وهو العمل والآخر غير مخلوق وهو القرآن . فإن قال : فما شبه هذا؟ قلنا : رجلان نظرا إلى جمرة حمراء فقال أحدهما هي جسم وقال الآخر هي نار ، وتجادلا في ذلك وشرّق الأمر بينهما حتى حلف كل واحد بالطلاق على ما قال ثم صارا إلى الفقيه فقالا : إنا اختلفنا في جمرة فقال أحدنا هى جسم وقال الآخر هى نار ، وتمارينا في ذلك حتى حلف كل منّا بالطلاق على ما ادعى ، فقال الفقيه لكل واحد منها : صدقت ولكن ذكرت شيئاً ذا معنيين بأحد معنييه فالجمرة مثل للقراءة لأنها اسم واحد يجمع معنيين الجسم والنار ، كما أن القراءة تجمع معنيين ، العمل والقرآن ولو كان أحد المختلفين قال هى جسم ونار قد جمع لها الصنفين ، كما أن من قال القراءة عمل وقرآن قد جمع لها الصنفين [1].

ويضرب رحمه اللّه أمثلة أخرى بالنجم والأكل والقتل فيقول :

وكذلك لو اختلف اثنان في نجم فقال أحدهما هو نار وقال الآخر هو نور كانا جميعاً صادقين لأن النجم اسم ذو معنيين « نار ونور » وكذلك فلو اختلف اثنان في أكل الإنسان فقال أحدهما هو مضغ وقال الآخر هو بلع كانا جميعاً صادقين لأن أكل الإنسان اسم ذو معنيين . « مضغ وبلع »

وكذلك لو اختلفا في القتل فقال أحدهما هو جرح وقال الآخر هو موت لأن القتل اسم ذو معنيين « عمل وموت » ويزيل رحمه اللّه اشتباهاً قد يقع عند سماع المصدرين « القراءة واللفظ » بعد دخول اللام على الأول والباء على الثاني .

---

(١) االمصدر السابق ص ٥٣ .

ويقول : وقد بقيت بعدما بينت لطيفة قد يغلط في مثلها وهى أن السامع إذا سمع قائلاً يقول : « قراءتي للقرآن » « ولفظي بالقرآن » قراءة القرآن مفردة عن القرآن، واللفظ منفرد عن القرآن . توَهّم أن كل واحد منهما غير ممازج للقرآن وليس كذلك، وإنما قوله للقرآن " بالقرآن " تمييز للقرآن من غيره، لأن القارىء قد يقرأ غير القرآن . وهذا من أغمض ما مرَّ وأدقّه - فتأمله وتدبره حتى تفهمه وسأزيده إيضاحاً . . . . . كأن رجلاً يسمى محمدا قرأ . فسمعه رجل يقال له زيد، فقال لأخ له يقال له عبد اللّه : ما أحسن قراءة محمد، فقال عبداللّه ماذا قرأ ؟ فيقول زيد : القرآن، وكذلك لو قال : ما أحسن لفظ محمد فقال عبد اللّه وبماذا لفظ ؟ فيقول له زيد : بالقرآن . فالقرآن ههنا تمييز وتبيين وكل من القرآن واللفظ يجمع معنيين عملاً وقرآناً (١).

هذا مجمل ما ذكره ابن قتيبية نقلناه جملة وأطلنا في عرضه لأهميته وتسلسله .

---

(١) المصدر السابق ص ٥٤ .

ثانياً : تقّي الدين أحمد بن تيْميَّة

أما الإمام ابن تيمية رحمه اللّه فقد أطال النفس جداً في بيان أصل النزاع في قَضيَّتيْ خلق القرآن واللفظ به، وأزال الشُبَه وفَنَّد الأقوال، وأعاد وكررَّ حتى لم يبق فيها شاردة ولا واردة إلا بيّنها بأسلوبه المتميز (١).

وحتى لا يطول بنا مقام الاستشهاد بأقواله والتأليف بينها، لكثرتها وتناثرها وتنوع مطالبها وطولها إذ أن بعضها كان مجرد إجابة على سؤال رام فيها الاختصار فاضطره المقام إلى أن أصبحت رسالة أو كتاباً، وقد كان رحمه اللّه يدرك أهمية الاستقصاء والشمول في هذه القضايا المشكلة، وإنَّ اختزال بعض كلامه أو محاولة جمع ما تناثر من أقواله لهو تشويه لعلمه وما أراد بيانه للناس وإنَّ حاله كما قال المتنبي :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم (٢)

فعزيمة ابن تيمية على قدره . . . . وما أُشَبّهُهُ رحمه اللّه إلا بالبحر الذى يتنفع منه غالب الناس، باستخراج ما فيه من حلية ومتاع، وَمُخرِ عبابه لرؤية البلدان وتحصيل المنافع، وهكذا كان ابن تيميَّة بحراً في جميع العلوم يستقي منه جميع الناس حتى المخالفون، وموجاً هادراً على المستبدين من الغزاة والجامدين من الحكام والعلماء، لذا كان أوَّل من تجرأ بعد قرون متطاولة على كسر هذا الجمود والتقليد المذهبي، والابتداع العقائدي، والتقوقع، ومن كان هذا حاله وجب أن نرتفع إلى مقداره، ونأخذ من علمه قدراً يعيننا على فهم كل مراده . .

(١) وفي فتاويه كم كبير من بيان هذه المسألة حتى إن المجلد الثاني عشر يكاد يكون كله في بيانها وللوقوف على سائر كلامه في مجموع الفتاوي يرجع إلى المحتويات الإجمالية لـ « القرآن كلام اللّه حقيقة» فقد فهرس الشيخ محمد بن عبدالرحمن بن قاسم ذلك في ثلاث عشرة صفحة، انظر : ٣٦/ من ص٢١٧ إلى ٢٣٠.

(٢) ديوان أبي الطيب المتنبي ٣/ ٣٧٨، وشرحه التبيان في شرح الديوان لأبي البقاء العكبري.

لذا : فإني أنقل جزءاً كبيراً من نص كامل له عثرت عليه في كتابه درء تعارض العقل والنقل [1] وقد اخترته دون غيره من النصوص والرسائل لأمرين :

أولاً : لأنه أقصر نصوص ابن تيمية الجامعة المانعة على العموم في هذا الموضوع [2] فإنه قد تَعرَّض فيه لنشوء الالتباس، وموارد النزاع، ووجه الحق في المسألة، وتسلسل ظهور الفهم الخاطىء ومن تبناه، وبيان مراد الطائفتين اللتين تنازعتا في موافقة الإمام أحمد لهما، ومخالفة بعض أتباعهم لهم إلى أقوال خطرة . . . ثم توارث التفرق في أتباع الطائفتين مع بيان أسماء بعض العلماء القائلين بكل قول، والمنشئين لكل طائفة . . . . الى غير ذلك .

ثانياً : الأمر الآخر الذى جعلني أنقل معظم النص أنه رحمه الله تملك زمام القضية عرضاً وروعة في البيان . . . مما لم أجده عند غيره بهذا الاستقصاء والشمول ووجازة العبارة . . فأثبّته . . . وعملت عليه دراسة مقارنة . . من كتبه الأخرى . . وكتب غيره من العلماء لتفصيل ما أجمله . . أو تبيين ما أبهمه مما في بيانه زيادة إيضاح كقصة أبي طالب مع الإمام أحمد التى أشار إليها، أو ذكر ما أهمله من الأسماء لدى بعض الطوائف، أو سياق خلاصة مسائل جدَّت خلال

---

(١) تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم " وجدير بالذكر أن لهذا الكتاب أكثر من خمسة أسماء متقاربة العناوين أشار إليها جميعاً المحقق في مقدمته١/ ٤ " والكتاب مطبوع باسم " موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول " باعتناء عبدالرحمن الوكيل .

(٢) وللشيخ الإمام رسائل جامعة مانعة ولكنها طويلة يتعذر عرضها في هذا الموضع مثال ذلك : رسالة في مسألة اللفظ في مجموع الفتاوى١٢/ ٣٣٣-٤١٦ ، وقد تعرض فيها لأساس القضية من لدن تكذيب الأمم السابقة بأنبيائهم ورسالاتهم كقوم نوح، وكفر آخرين ببعض ماجاءت به الرسل كاليهود والنصارى، وكإيمان آخرين ببعض صفات الرسالة وكفر ببعض، كالصابئة والفلاسفة الذين فرخوا في دولة الإسلام أمثال القرامطة الباطنية من الإسماعيلية والنصيرية والخُرّمِّية والمزدكية، وفروخ الجهمية الذين سببوا البلايا للأمة . . . ثم يستطرد ويأتي على شبهة الجهمية في كلام اللّه وأقوالهم والرد عليهم وبيان الحق في فِتْنَتَيْ الخلق واللفظ .

الأحداث ولم يبينها « كمسألة الحرف والصوت » . . أو تعليقات . . الخ مما أظن أنه يَسُد ثغرات قليلة في هذا النص . . . وابن تيمية لم يجرد قلمه لبيان قضية اللفظ لذاتها . . . ولو كان ذلك لما ترك مكانا للتعقيب . . وقد عَنْونْتُ لبعض المواطن المهمة بعنوان يبين ما تحتها وجعلته بين قوسين إلى يسار الصفحة . . . وكذلك جعلت أمامَ كل طائفة رمزاً بالحروف الأبجدية زيادة في الايضاح .

نص كلام ابن تيميّة على اللفظ :

قال رحمه اللّه تعالى : « وكذلك مسألة اللفظ [1] فانه لما كان السلف والأئمة متفقين على أن القرآن كلام اللّه غير مخلوق وقد علم المسلمون أن القرآن بلّغه جبريل عن اللّه إلى محمد صلى اللّه عليه وسلم وبلّغه محمد إلى الخلق ، وأن الكلام إذا بلغه المبلغ عن قائله لم يخرج عن كونه كلام المبَلِّغ عنه ، بل هو كلام لمن قاله مبتدئاً ، لا كلام من بلّغه عنه مؤدياً . فالنبي صلى اللّه عليه وسلم اذا قال : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل إمرء مانوى » [2] وبلغ هذا الحديث عنه واحد بعد واحد حتى وصل إلينا ، كان من المعلوم أنّا إذا سمعناه من المُحَدِّث به إنما سمعنا كلام رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم الذى تكلّم به بلفظه ومعناه ، وإنما سمعناه من المبَلِّغ عنه بفعله وصوته ، ونفسُ الصوت الذى تكلم به النبي صلى اللّه عليه وسلم لم نسمعه ، وإنما سمعنا صوت المحدث عنه والكلام كلام رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، لاكلام المُحَدِّث .

---

(١) كلام ابن تيمية رحمه اللّه هنا على مسألة اللفظ . . . أحد ثلاثة أمثلة ضربها في كتابه ليدلل على أن المتكلمين المبتدعة إنما ارتكزوا في أقوالهم وأفكارهم ومناقشاتهم على « عقليات مبتدعة بنيت على أقوال مشتبهة مجملة تشتمل على حق وباطل» وهذه الأمثلة هي : (أ)الكلام على الرؤية (ب)كلمة جبر (ج)اللفظ بالقرآن . . . . . ومن عرضنا واستشهادنا لكلامه وتحليلاته القيمة في هذه المسألة يتضح لنا ماتميز به رحمه اللّه تعالى من عبقرية فذة ، وذكاء مفرط ، واطلاع واسع ، وإلمام بالعلوم والمسائل حتى إنّه ليدع المرء يتفتق ذهنه بما غاب عنه وجهله ، وينشرح صدره للعلم الذي حازه من جعبة هذا الجهبذ الذي يَحقُ لأمتنا أن تفتخر بانتسابه إليها ، وكان كلامه على هذه « العقليات المبتدعة . . . إلخ» هو الوجه السابع عشر من جوابه التفصيلي بعد الجواب الإجمالي على قانون التأويل ومناقشته للقائلين به . . . من أمثال الفخر الرازي الذي مزج المذهب الأشعري بالفلسفة والاعتزال . . . وقد كان الفخر وأتباعه قبل توبته قد جعل هذا القانون مرشداً فيما يستدل به من كتب اللّه ، وكلام أنبيائه ، ومالايستدل به ولذا ردوا الاستدلال بما جاءت به الأنبياء في صفات اللّه ظناً منهم أنها تعارض العقل . . . طالع درء تعارض العقل والنقل ١/ ٤ .

(٢) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه ، كتاب بدء الوحي ، باب كيف كان بدءُ الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ١/ ٣ ، ومسلم في صحيحه ، كتاب الإمارة ، باب قوله صلى الله عليه وسلم ، إنما الأعمال بالنية ٣/ ١٥١٥ .

فمن قال إن هذا الكلام ليس كلام رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم كان مفترياً، وكذلك من قال : إن هذا لم يتكلم به رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، وإنما أحدثه في غيره، أو إن النبي صلى اللّه عليه وسلم لم يتكلم به بلفظه وحروفه، بل كان ساكتاً أو عاجزاً عن التكلم بذلك، فعلَّم غيره مافي نفسه، فنظم هذه الألفاظ ليعبر بها عما في نفس النبي صلى اللّه عليه وسلم، أو نحو هذا الكلام ـ فمن قال هذا كان مفترياً، ومن قال : إن هذا الصوت المسموع صوت النبي صلى الله عليه وسلم، كان مفترياً.

فإن كان هذا معقولاً في كلام المخلوق ، فكلام الخالق أولى بإثبات مايستحقه من صفات الكمال، وتنزيه اللّه أن تكون صفاته وأفعاله هى صفات العباد وأفعالهم أو مثل صفات العباد وأفعالهم.

فالسلف والأئمة كانوا يعلمون أن هذا القرآن المنزل المسموع من القارئين كلام اللّه، كما قال اللّه تعالى ﴿ **وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله** ﴾ (١) ليس هو كلاماً لغيره، لالفظه ولامعناه ولكن بلغَّه عن الله جبريل، وبلغَّه محمد رسول اللّه عن جبريل، ولهذا أضافه اللّه إلى كل من الرسولين، لأنه بلغَّه وأدَّاه، لا لأنه أحدث لالفظه ولامعناه، إذ لو كان أحدهما هو الذى أحدث ذلك لم يصح إضافة الإحداث إلى الآخر، فقال تعالى ﴿ **إنه لقول رسول كريم ، وماهو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون ، ولابقول كاهن قليلاً ماتذكرو ن، تنزيل من رب العالمين** ﴾ (٢) فهذا محمد صلى اللّه

---

(١) سورة التوبة آية ٦ .

(٢) سورة الحاقة آيه ٤٠ - ٤٣ .

عليه وسلم. وقال تعالى ﴿ **إنه لقول رسول كريم، ذي قوةٍ عند ذي العرش مكين ، مطاع ثمّ أمين**﴾ (١) فهذا جبريل عليه السلام.

وقد توعد اللّه تعالى من قال ﴿ **إن هذا إلا قول البشر** ﴾ (٢) فمن قال إن هذا إلا قول البشر فقد كفر، وقال بقول الوحيد الذى أوعده اللّه سقر، ومن قال: « إن شيئاً منه قول البشر » فقد قال ببعض قوله، ومن قال: « إنه ليس بقول رسول كريم، وإنما هو قول شاعر أو مجنون أو مفتر » أو قال: « هو قول شيطان نزل به عليه » ونحو ذلك، فهو أيضاً كافر ملعون.

(فرقٌ بين سماعنا كلام المتكلم منه، وبين سماعنا إياه من المبلغ عنه)

وقد عَلِمَ المسلمون الفرق بين أن يسمع كلام المتكلم منه أو من المبلغ عنه، وأن موسىَ سمع كلام اللّه من اللّه بلاواسطه، وأنّا نحن إنما نسمع كلام اللّه من المبلِّغين عنه، وإذا كان الفرق ثابتاً بين مَنْ سمع كلام النبي صلى اللّه عليه وسلم منه وبين من سمعه من الصاحب المبلِّغ عنه، فالفرق هنا أولى، لأن أفعال المخلوق وصفاته أشبه بأفعال المخلوق وصفاته.. من أفعاله وصفاته بأفعال اللّه وصفاته. ولمّا كانت الجهميَّة يقولون: « إن اللّه لم يتكلم في الحقيقة، بل خلق كلاماً في غيره » ومن أطلق منهم أن اللّه تكلم حقيقة، فهذا مراده، فالنزاع بينهم لفظي- كان من المعلوم أن القائل اذا قال: « هذا القرآن مخلوق » كان مفهوم كلامه أن اللّه لم يتكلم بهذا القرآن، وأنه ليس هو كلامه، بل خلقه في غيره (٣).

(معنى كلام المسلمين أن هذا القرآن كلام اللّه)

---

(١) سورة التكوير آية ١٩ - ٢٣.

(٢) سورة المدثر آية ٢٥.

(٣) مورد ومنبع الفتنة هو نظرة الجهمية إلى كلام اللّه، وأنه لايتكلم وبنوا على هذا التأصيل الفاسد بقيَّة آرائهم وأقوالهم المهتزة التي لاتتماسك أمام النصوص الشرعية والحجج العقلية السليمة كما سيأتي في بقية كلام ابن تيمية... فانظر إلى هذا التطاول السافر على ذات اللّه وصفاته عز وجل، وماهذا إلا إحدى بلايا وبوائق المناهج المنحرفة عن كتاب اللّه وسنة رسوله صلى اللّه عليه وسلم.

واذا فسَّر مراده بأني أردت أن حركات العبد وصوته والمداد مخلوق، كان هذا المعنى ـ وإن كان صحيحاً ـ ليس هو مفهوم كلامه، ولامعنى قوله، فإن المسلمين إذا قالوا: « هذا القرآن كلام اللّه » لم يريدوا بذلك أن أصوات القارئين، وحركاتهم قائمة بذات اللّه، كما أنهم إذا قالوا : « هذا الحديث حديث رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم « لم يريدوا بذلك » أن حركات المحِّدث وصوته قامت بذات رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم . بل وكذلك إذا قالوا في إنشاء لبيد: « ألا كل شيء ماخلا اللّه باطل . . . . »

هذا شعر لبيد وكلام لبيد، لم يريدوا بذلك أن صوت المنشد هو صوت لبيد، بل أرادوا أن هذا القول المؤلف. لفظه ومعناه هو للبيد، وهذا منشد له، فمن قال: « إن هذا القرآن مخلوق » أو : « إن القرآن المنزل مخلوق » أو نحو هذه العبارات كان بمنزلة من قال : إن هذا الكلام ليس هو كلام اللّه ، وبمنزلة من قال عن الحديث المسموع من المُحَدِّث: إن هذا ليس هو كلام رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، وإن النبي صلى اللّه عليه وسلم لم يتكلم بهذا الحديث، بمنزلة من قال : إن هذا الشعر ليس هو شعر لبيد، ومعلوم أن هذا كله باطل.

ثمَّ إن هؤلاء صاروا يقولون [1]: هذا القرآن المنزل المسموع هو تلاوة القرآن وقراءته، وتلاوة القرآن مخلوقة، وقراءة القرآن مخلوقة، ويقولون: تلاوتنا

(١) هذه هي المرحلة الثانية من اضطرابات الجهمية وأقوالهم الخطرة وتطورها . . وانظر كيف استتروا بقولهم " لفظنا بالقرآن مخلوق" وهو قول مجمل مشتبه يحتاج لتفصيل بين الملفوظ " وهو كلام اللّه المنزل " وبين لفظ العبد أي " حركته وفعله " ثم يدخلون أحد جانبي الكلمة في دائرة الخلق وهو ما جهمهم عليه الإمام أحمد رحمه الله لأنهم تدرجوا باللفظ إلى خلق القرآن لما خافوا من سطوة أهل السنة.

للقرآن مخلوقة وقراءتنا له مخلوقة، ويدخلون في ذلك نفس الكلام المسموع، ويقولون: لفظنا بالقرآن مخلوق، ويدخلون في ذلك نفس الكلام المسموع.

فأنكر الإمام وغيره من أئمة السنة هذا، وقالوا: اللفظية جهمية، وقالوا: افترقت الجهمية ثلاث فرَق: فرقة قالت: القرآن مخلوق، وفرقة قالت: نقف فلا نقول مخلوق ولاغير مخلوق، وفرقة قالت: تلاوة القرآن واللفظ بالقرآن مخلوق (١).

(بداية وأصل الاضطراب والتخلخل في صفوف أهل السنةوذلك باطلاق ألفاظ مجملة فيها حق وباطل) (٢)

فلما انتشر ذلك عن أهل السنة غلطت طائفه فقالت: لفظنا بالقرآن غير مخلوق، وتلاوتنا له غير مخلوقة، فبدَّع الإمام أحمد هؤلاء، وأمر بهجرهم.

---

(١) نقل الدكتور محمد رشاد محقق الكتاب ١/ ٢٦٠. نصاً عن الإمام أحمد من كتابه السنة «ضمن مجموعة شذرات البلاتين ص ٤٩» فحوى الكلام السابق إلا أنه كفر جميع الفرق، ومن لم يكفرهم فهو مثلهم. "قلت" يُحْمَلُ تكفير الإمام أحمد للفرقة الثالثة وهم اللفظية القائلين بخلق التلاوة واللفظ . . . على أنهم يريدون بقولهم خلق القرآن. . . لأن ابن تيمية رحمه اللّه ذكر أن الإمام أحمد في عامة كلامه عن اللفظية إنما هو يجهمهم لايكاد يطلق القول بتكفيرهم كما يطلقه بتكفير المخلوقية. . . انظر مجموع الفتاوى ١٢/ ٢٠٦. . . وكان تجهيم الإمام أحمد لهم لمعرفته أن هناك من يقول قولهم ولايريد مرادهم كما حدث عند طوائف من أهل السنَّة وقد صرح بذلك رحمه اللّه تعالى فيما نقله عنه الإمام الذهبي رحمه اللّه قال: "قلت: الذي استقر عليه الحال، أن أبا عبد اللّه كان يقول: من قال: لفظي بالقرآن غير مخلوق، فهو مبتدع، وأنه قال: من قال: لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي. فكان رحمه اللّه لايقول هذا ولاهذا. وربما أوضح، فقال: من قال: لفظي بالقرآن مخلوق، يريدبه القرآن فهو جهمي. سير أعلام النبلاء١١/ ٢٨٨.

(٢) لذا كان أمام الإمام أحمد أحد أمرين: إما التفصيل البالغ. . . . وهذا يصعب فرزه وفهمه خصوصاً على العامة وأنصاف المتعلمين، وإما منع الكلام في المسألة على أي حال حفاظاً على سلامة عقيدة الناس" وهذا من فقهه" ولكن الناس إن أمسكت ألسنتهم لم تمسك قلوبهم وإن أمسكت قلوبهم لم تمسك عقولهم. . فتشابهت عليهم الأمور وتكلموا فوقع الاضطراب الشديد حتى بين العلماء.

ولهذا ذكر الأشعري في مقالاته هذا عن أهل السنة وأصحاب الحديث فقال: [والقول باللفظ والوقف عندهم بدعة، من قال : اللفظ بالقرآن مخلوق فهو مبتدع عندهم، ومن قال: إنه غير مخلوق فهو مبتدع].

وكذلك ذكر محمد بن جرير الطبري في « صريح السنة » أنه سمع غير واحد من أصحابه يذكر عن الإمام أحمد أنه قال : [من قال : لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي، ومن قال: غير مخلوق فهو مبتدع].

وصنَّف أبو محمد بن قتيبة في ذلك كتاباً، وقد ذكر أبو بكر الخلاَّل هذا في كتاب «السنة» وبسط القول في ذلك، وذكر ماصنفه أبو بكر المروزي في ذلك.

وذكر قصة أبي طالب [1] المشهورة [2] عن أحمد التي نقلها عنه أكابر أصحابه، كعبد الله وصالح ابنيه والمروزى وأبى محمد فوران ومحمد بن إسحاق الصاغانى وغير هؤلاء.

(تسلسل ظهور طوائف أهل السنة وأتباعهم)

أ - طائفة تطلق لفظاً مجملاً ومرادهم صواب

---

(١) أبو طالب تقدمت ترجمته ص ٣٠٧.

(٢) القصة ساقها ابن تيمية رحمه اللَّه في مجموع الفتاوى قال: وقال أبو الفضل صالح بن أحمد بن حنبل في " كتاب المحنة " تناهى إليَّ أنَّ أبا طالب حكى عن أبي أنه يقول: لفظي بالقرآن غير مخلوق ، فأخبرت أبي بذلك فقال: من أخبرك؟ قلت: فلان، فقال: ابعث إلى أبي طالب، فوجهت إليه فجاء، وجاء فوران، فقال له أبي: أناقلت لك: لفظي بالقرآن غير مخلوق؟ وغضب وجعل يرتعد، فقال له: قَرأت عليك: "قل هو اللَّه أحد" فقلتَ لي: هذا ليس بمخلوق؟ قال له: فلم حكيت عني أني قلت: لفظي بالقرآن غير مخلوق؟ وبلغني أنك وضعت ذلك في كتابك، وكتبت به إلى قوم، فإن كان في كتابك فامحه أشد المحو، واكتب إلى القوم الذين كتبت إليهم: أني لم أقل هذا وغضب، وأقبل عليه فقال : تحكي عني مالم أقل لك؟ فجعل فوران يعتذر له وانصرف من عنده وهو مرعوب، فعاد أبو طالب، فذكر أنه حك ذلك من كتابه.وأنه كتب إلى القوم يخبرهم، أنه وَهِمَ على أبي عبد اللَّه في الحكاية. مجموع الفتاوى١٢/ ٤٢٣ . وقد روى القصة " الخلال فيَ كتاب السنة " بصيغة مقاربة . . . وقد نقلها أيضاً رحمه اللَّه في ١٢/ ٤٢٥ . =

وكان أهل الحديث قد افترقوا في ذلك، فصار طائفة منهم يقولون « لفظنا بالقرآن غير مخلوق » ومرادهم أن القرآن المسموع غير مخلوق، وليس مرادهم صوت العبد، كما يذكر ذلك عن أبي حاتم الرازى، ومحمد بن داود المصيصي (١)، وطوائف غير هؤلاء (٢).

(ب ـ طائفة تابعه لهؤلاء يطلقون اللفظ المجمل ولكن مرادهم خطير.)

= وتروى قصة مماثلة في نفس هذا الباب عن رجل آخر هو ابن شداد، قال الخلال في السنة : حدثنا المروذي قال لي أبو عبد الله : قد غيظ قلبي على ابن شداد قلت: أيُ شيء حكى عنك؟ قال: حكى عنى في اللفظ، فبلغ ابن شداد أن أبا عبد اللّه قد أنكر عليه فجاءنا حمدون بن شداد بالرقعة فيها مسائل، فأدخلتها على أبي عبد اللّه، فنظر فرأى فيها: إن لفظي بالقرآن غير مخلوق-مع مسائل فيها-فقال أبو عبد اللّه: فيها كلام ماتكلمت به، فقام من الدهليز فأخرج المحبرة والقلم، وضرب أبو عبد اللّه على موضع: لفظي بالقرآن غير مخلوق، وكتب أبو عبد اللّه بخطه بين السطرين: القرآن حيث تصرف غير مخلوق، وقال: ماسمعت أحداً تكلّم في هذا بشيء وأنكر على من قال: لفظي بالقرآن غير مخلوق. مجموع الفتاوى١٢/ ٤٢٤.

(قلت) في هاتين القصتين دلالة على اللّبس في فهم المسألة حتى من أقرب الناس للإمام أحمد، وعدم تجهيمه لهذين دليل إدراكه أن هناك من يطلق اللفظ بالفَهم الخاطىء أو يطلقه ويروم تنزيه اللّه عن خلق كلامه.

(١) محمد بن داود أبو جعفر المصيصي روى عن حجاج بن منهال وأحمد بن حنبل، وعنه أبو داود والنسائي، وآخرون. قال الآجرى عن أبي داود: كان ينتقد الرجال ومارأيت رجلاً أعقل منه، وقال الخلال: كان من خواص أحمد ورؤسائهم. تهذيب التهذيب ٩/ ١٣٦.

(٢) من أهم هؤلاء الإمام محمد بن يحيى الذهلي إن صحّت نسبة هذا القول إليه أو تلفظه به فإني لم أجد نصاً واحداً عنه يبين ذلك فيما اطلعت عليه وعلى فرض قوله ذلك فيجب حمله على مراد أبي حاتم ومحمد المصيصي السابق وهو " أن القرآن المسموع غير مخلوق، مع عدم ادخالهم صوت العبد ضمن دائرة عدم الخلق " وقد ذكر نسبة هذا القول للذهلي الإمام ابن تيمية في مجموع الفتاوى فقال : والقول بأن " اللفظ غير مخلوق " نُسبَ إلى محمد بن يحيى الذهلي وأبي حاتم الرازي، بل وبعض الناس ينسبه إلى أبي زرعه الرازي أيضاً، ويقول: إنه هو وأبو حاتم هجرا البخاري لما هجره محمد بن يحيى الذهلي. . . " مجموع الفتاوى ١٢/ ٢٠٧ومما يؤكد أن هؤلاء جميعاً لايدخلون صوت العبد وفعله ضمن عدم الخلق كلام أبي نصر السجزي أحد أتباعهم وأعظم القائلين بأن اللفظ بالقرآن هو القرآن وهو غير مخلوق. "١٢/ ٤٢٩" وبالمقابل نجد أنَّ القول " بأن اللفظ مخلوق " نُسبَ أيضاً إلى البخاري. . . . وسيأتي الكلام على ذلك قريباً.

وفى أتباع هؤلاء من قد يدخل صوت العبد أو فعله في ذلك أو يقف فيه، ففهم ذلك بعض الأئمة، فصار يقول: أفعال العباد وأصواتهم مخلوقة، رداً على هؤلاء، كما فعل البخاري ومحمد بن نصر المروزي وغيرهما من أهل العلم والسنّة، وصار يحصل بسبب كثرة الخوض في ذلك ألفاظ مشتركة، وأهواءٌ للنفوس حصل بسبب ذلك نوعٌ من الفرقة والفتنة، وحصل بين البخارى ومحمد ابن يحيى الذهلى في ذلك ماهو معروف[1].

وصار قوم مع البخارى كمسلم بن الحجاج ونحوه، وقوم عليه كأبي زرعة وأبي حاتم الرازيين وغيرهما. وكل هؤلاء من أهل العلم والسنة والحديث، وهم من أصحاب أحمد، ولهذا قال ابن قتيبة: إن أهل السنة لم يختلفوا في شيء من أقوالهم إلا في مسألة اللفظ [2]. وصار قوم يطلقون القول بأن التلاوة هي المتلو، والقراءة هى المقروء وليس مرادهم بالتلاوة المصدر [3] ولكن الإنسان إذا تكلم

---

(١) تفصيل ماحدث بينهما سيأتي في المبحث الرابع.

(٢) ذكر ابن تيمية مسائل أخرى غير هذه تنازع فيها المحدثون ويظهر أنها من الاختلاف في اللفظ، وهل هو مخلوق أم غير مخلوق، وتفرعت عنه وهذه المسائل هي (أ) مسألة الإيمان وهل هو مخلوق. (ب)مسألة نور الإيمان. (ج)والهدى. مجموع فتاوى ابن تيمية ١٢/ ٤٣١. ويقول في ذلك ابن تيمية: "وكلام الإمام أحمد في "التلاوة والإيمان والقرآن" من نمط واحد وهو منع الإطلاق لمافيه من الذريعة، مجموع الفتاوى. ١٢/ ٣٦٣.
ويقول ابن قتيبة: "وذهب قوم من منتحلي السنة إلى أن الإيمان غير مخلوق خوفاً من أن يلزمهم أن يقولوا: لا إله الا اللّه "مخلوق اذ كانت رأس الإيمان فركبوها شنعاً. . . : الخ" الاختلاف في اللفظ ص ٥٤. وقد تعرض باستفاضة لمسألة خلق الإيمان الأخ الأستاذ موسم العتيبي في رسالة نال بها درجة الماجستير من جامعة أم القرى قسم العقيدة وعنوانها "الإمام محمد بن نصر المروزي وجهوده في الدفاع عن عقيدة السلف".

(٣) المصدر هو "فعل العبد وحركته بالقرآن" وهؤلاء قولهم خطير. قال ابن القيم: "والذين قالوا التلاوة هي المتلو، فليست حركات الانسان عندهم هي التلاوة، وإنما أظهرت التلاوة وكانت سبباً لظهورها، وإلا فالتلاوة عندهم هي نفس الحروف والأصوات وهي قديمة". . . أ.هـ، انظر مختصر الصواعق المحرقة ص ٤٣٦. ولعل هذا الفريق هو نفس الطائفة السابقة (ب)عبّروا عن رأيهم بأن التلاوة هي المتلو.

بالكلام فلابدَّ له من حركة، ومما يكون عن الحركة من أقواله التي هي حروف منظومة ومعان مفهومة، والقولُ والكلام يراد به تارة المجموع فتدخل الحركة في ذلك، ويكون الكلام نوعاً من العمل وقسماً منه، ويراد به تارة مايقترن بالحركة ويكون عنها، لانفس الحركة، فيكون الكلام قسيماً للعمل، ونوعاً آخر ليس هو منه، ولهذا تنازع العلماء في لفظ العمل المطلق، هل يدخل فيه الكلام؟ على قولين معروفين لأصحاب أحمد وغيرهم، وبنوا على ذلك ما إذا حلف لايعمل اليوم عملاً، فتكلم هل يحنث «أم لا»؟ على قولين، وذلك لأن لفظ الكلام قد يدخل في العمل وقد لايدخل (١).

فالأول : كما في قول النبي صلى الله عليه وسلم: [لاحسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن فهو يتلوه آناء الليل والنهار، فقال رجل: لو أن لي مثل مالفلان لعملت فيه مثل مايعمل فلان] أخرجاه في الصحيحين (٢) فقد جعل فعل هذا الذى يتلوه آناء الليل والنهار عملاً، كما قال: « لعملت فيه مثل مايعمل فلان ».

---

(١) من الأمثلة على ذلك خلاف ماسيذكره ابن تيمية. ماذكره ابن قتيبة " . . . عن اللفظ والقراءة بالقرآن/ أن القراءة لفظ واحد يشتمل على معنيين أحدهما عمل والآخر قرآن. . إلا أن العمل لايتميز عن القرآن. . . الخ كلامه " الاختلاف في اللفظ ص ٥٢.
قلت: فمن حلف أنها قرآن فهو صادق، ومن حلف أنها عمل فهو بار.
ويقول ابن تيمية رحمه اللّه " ولما كان الكلام لايكون إلا بحركة وفعل تنشأ عنه حروف ومعاني صار الكلام يدخل في إسم الفعل والعمل، تارة باعتبار الحركة والفعل، ويخرج عنه تارة باعتبار الحروف والمعاني " مجموع الفتاوى ١٢/ ٤١٠.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن باب إغتباط صاحب القرآن ٦/ ١٣١ بنحوه، ورواه مسلم بلفظ مقارب في كتاب صلاة المسافرين باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه ١/ ٥٥٨، بترقيم وتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي.

والثانى : كما في قوله تعالى : **﴿ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾** [1] **وقوله تعالى ﴿ وماتكون في شأن وماتتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنَّا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه ﴾** [2].

جـ- (طائفة يقولون : إن التلاوة هى المتلو

ويقصدون الفصل بين كلام اللّه وحركة العبد)

فالذين قالوا « التلاوة هي المتلو » من أهل العلم والسنة قصدوا أن التلاوة هي « القول والكلام المقترن بالحركة » [3] وهى الكلام المتلو .

د ـ (طائفة يقولون : إن التلاوة غير المتلو ، وفصلوا

أفعال العباد المخلوقة عن كلام اللّه غير المخلوق)

وآخرون قالوا : بل التلاوة غير المتلو ، والقراءة غير المقروء ، والذين قالوا من أهل السنة والحديث بذلك أرادوا أن أفعال العباد ليست هي كلام اللّه ، ولا أصوات العباد هي صوت اللّه وهذا الذى قصده البخاري وهو مقصود صحيح .

سبب تعدد هذه الأقوال والطوائف

وسبب ذلك أن لفظ : « التلاوة ، والقراءة ، واللفظ » مجمل مشترك : يراد به المصدر ، ويراد به المفعول .

فمن قال : « اللفظ ليس هو الملفوظ ، والقول ليس هو المقول » وأراد باللفظ والقول المصدر ، كان معنى كلامه أن الحركة ليست هى الكلام المسموع ، وهذا صحيح .

ومن قال : « اللفظ هو الملفوظ ، والقول هو نفس المقول » وأراد باللفظ والقول مسمَّى المصدر ، صار حقيقة مراده أن اللفظ والقول « المراد به الكلام

---

(١) سورة فاطر آيه ١٠ .

(٢) سورة يونس آيه ٦١ .

(٣) بمعنى أن التلاوة عندهم هي " كلام اللّه المسموع من العبد + حركة العبد بفيه تالياً قارئاً للقرآن .

المقول الملفوظ » هو الكلام المقول. الملفوظ، وهذا صحيح . فمن قال : « اللفظ بالقرآن، أو القراءة، أو التلاوة، مخلوقة» أو : « لفظي بالقرآن أو تلاوتي » دخل في كلامه نفس الكلام المقروء المتلو، وذلك هو كلام اللّه تعالى . وإن أراد بذلك مجرد فعله وصوته كان المعنى صحيحاً ، لكن إطلاق اللفظ يتناول هذا وغيره . ولهذا قال الامام أحمد في بعض كلامه : " من قال لفظي بالقرآن مخلوق يريد به القرآن فهو جهمي " [1] احترازاً عمّا إذا أراد به فعله وصوته . وذكر اللالكائي " أن بعض من كان يقول ذلك رأى في منامه كأن عليه فروة ورجل يضربه، فقال له لا تضربني، فقال : إنى لا أضربك، وإنما أضرب الفروة، فقال : إن الضرب إنما يقع ألمه عليَّ، فقال : هكذا إذا قلت : " لفظي بالقرآن مخلوق " وقع الخلق على القرآن . ومن قال : "لفظي بالقرآن غير مخلوق، أو تلاوتي" دخل ذلك في المصدر الذى هو عمله، وأفعال العباد مخلوقة، ولو قال: " أردت به أن القرآن المتلو غير مخلوق، لا نفس حركاتي " قيل له : لفظك هذا بدعة، وفيه إجمال وإيهام، وإن كان مقصودك صحيحاً " كما يقال للأول إذا قال : أردت أنَّ فعلي مخلوق: « لفظك أيضاً بدعة، وفيه إجمال وإيهام، وإن كان مقصودك صحيحاً" فلهذا منع أئمة السنة الكبار إطلاق هذا وهذا، وكان هذا وسطاً بين الطرفين [2] . وكان أحمد وغيره من الأئمة يقولون : القرآن حيث تصرَّف كلام اللّه غير

---

(١) قال البيهقي رحمه اللّه بعد نقله هذه الجملة " هذا تقييد حفظه عنه ابنه عبداللّه وهو قوله " يريد به القرآن" فقد غفل عنه غيره ممن حكى في اللفظ خلاف ماحكينا حتى نسب إليه ماتبرأ منه . الأسماء والصفات ص ٢٦٦ .

(٢) قال ابن تيمية رحمه اللّه : " ولهذا يوجد كثيراً في كلام السلف والأئمة النهي عن اطلاق موارد النزاع بالنفي والإثبات، وليس ذلك لخلو النقيضين عن الحق، ولاقصور أو تقصير في بيان الحق، ولكن لأن تلك العبارة من الألفاظ المجملة المتشابهة المشتملة على حق وباطل، ففي إثباتها حق وباطل، وفي نفيها نفي حق وباطل فيمنع من كلا الإطلاقين الخ«درء تعارض العقل والنقل١/ ٧٦».

مـخلوق ، فيجعلون القرآن نفسه حيث تصرف غير مخلوق، من غير أن يقترن بذلك ما يشعر أن ألفاظ العباد وصفاتهم غير مخلوقة[1] . وصارت كل طائفة من النفاة والمثبتة في مسألة التلاوة تحكي قولها عن أحمد، وهم كما ذكر البخاري في كتاب « خلق الأفعال » وقال : إنّ كل واحدة من هاتين الطائفتين تذكر قولها عن أحمد، وهم لا يفقهون قوله لدقة معناه .

(توارث أتباع الطائفتين ما وجدوا مشايخهم عليه)

هـ - (بعض أتباع أبي حاتم الرازي القائلين بأن اللفظ غير مخلوق)

ثم صار ذلك التفرق موروثاً في أتباع الطائفتين [2] فصارت طائفة تقول : إن اللفظ بالقرآن غير مخلوق، موافقة لأبي حاتم الرازي ومحمد بن داود المصيصي وأمثالهما كأبي عبد الله بن منده [3] وأهل بيته، وأبي عبدالله بن حامد [4] ، وأبي نصر السجزي [5] ، وأبي إسماعيل الأنصاري

(١) مفهوم كلام أحمد والأئمة « أن مايقترن بالقرآن من قراءة أو تبليغ أو غيره ابتداء من جبريل وتثنية بمحمد صلى الله عليه وسلم وانتهاء بسائر التالين للقرآن» فهو مخلوق لأنه من أفعال الخلق، أما القرآن فهو كلام الله غير مخلوق في كل هذه المراحل .

(٢) انظر قول ابن القيم في استمرار الفرقة من بعد أحمد إلى زمانه ص ٣٠٨ نهاية المبحث الثاني .

(٣) هو محمد بن إسحاق بن محمد بن يحيى بن منده أبو عبدالله الأصبهاني . حافظ من أولاد المحدثين كتب بالشام ومصر وخراسان واختلط في آخر عمره، قال : طفت الشرق والغرب مرتين، فلم أتقرب إلى كل مذبذب، ولم أسمع من المبتدعين حديثاً واحداً، توفي سلخ ذي القعدة سنة خمس وتسعين وثلاثمائة . أخبار أصبهان لأبي نعيم الأصبهاني٢/ ٣٠٦ . طبقات الحنابلة، لابن أبي يعلى ٢/ ١٦٧ .

(٤) هو الحسن بن حامد بن علي بن مروان ، أبو عبدالله البغدادي الوراق، صاحب التصانيف وعالم ماوراء النهر، كان كثير الحج، فعوتب في كثرة سفره وحجه مع كبر سنه . فقال : لعل الدرهم الزيف يخرج من الدراهم الجيدة . وقد أفاض القاضي ابن أبي يعلى في وصف تصانيفه وشروحه وقراءته عليها . وجانب من فقهه، توفي راجعاً من مكة بقرب واقصة سنة ٤٠٣هـ . طبقات الحنابلة٢/ ١٧١ ، تذكرة الحفاظ٣/ ١٠٧٨ .

(٥) هو أبو نصر عبيد الله بن سعيد بن حاتم السجزي الوائلي« نسبة إلى قرية وائل بسجستان» أحد الحفاظ، وشيخ الحرم، ومصنف « الإبانه الكبرى» في أن القرآن غير مخلوق، رحل في طلب العلم إلى الحجاز ، والشام والعراق وخراسان، توفي بمكة، في المحرم سنة ٤٤٤ هـ ، اللباب ٣/ ٣٥٢، السير١٧/ ٦٥٤ .

(١)، وأبي يعقوب الفرات الهروي وغيرهم (٢).

و- (طائفة تقول بأن اللفظ بالقرآن مخلوق

من غير دخول في مذهب ابن كُلاَّب)

وقومٌ يقولون نقيض هذا القول، من غير دخول في مذهب ابن كُلاَّب - مع اتفاق الطائفتين على أن القرآن كله كلام اللَّه ، لم يُحْدث غيُره شيئاً، ولاخَلَق منه شيئاً في غيره لا حروفه ولامعانيه مثل حسينَ الكرابيسي وداود بن علي الأصبهاني (٣) وأمثالهما (٤).

(١) هو شيخ الإسلام، أبو إسماعيل عبداللَّه بن محمد بن علي الأنصاري الهروي من ذرية أبي أيوب الأنصاري رضي اللَّه عنه، ولد سنة ٣٩٦هـ، قال عبدالغافر: كان إماماً كاملاً في التفسير حسن السيرة في التصوف ، قائماً بنصر السنة والدين، من غير مداهنة ولامراقبة لسلطان ولاغيره، وقال ابن طاهر: سمعته يقول بهراة: « عرضت على السيف خمس مرات لايقال لي: ارجع عن مذهبك ، ولكن يقال لي: اسكت عمن خالفك، فأقول: لاأسكت» تذكرة الحفاظ، طبقات المفسرين للداودي ١/ ٢٤٩، إيضاح المكنون ١/ ٣٣٠.

(٢) مثل« أبو العلاء الهمداني، وأبي الفرج المقدسي» مجموع الفتاوى١٢/ ٣٦١.

(٣) في ذكر قصة داود بن علي هنا لَبْسٌ وإشكال، إذ إنه من أشهر القائلين في خراسان بحدوث القرآن حتى كتب فيه الذهلي وجماعة من الأئمة إلى أحمد بن حنبل ببغداد يخبرونه بما أحدث، وامتنع عن مقابلته. والذي يظهر من استقراء النصوص أن كلام ابن تيمية هذا عن الكرابيسي والأصبهاني وأنهم يقولون بأن اللفظ مخلوق، وكلام اللَّه غير محدث ولاحالّ في شيء. . . «إنما هو على أساس مبدأ أمرهما. . . ثم طرأت على الأصبهاني فكرة حدوث القرآن . . . وهذا أمر وارد» . فإن المتتبع لاحوال الرجال يجد أن الواحد منهم قد يقضي حياته بين المذاهب والفرق . . كحال أبي الحسن الأشعري من اعتزال إلى مذهب ابن كُلاَّب إلى استقرار على مذهب السلف . . والعبره في الأعمال بخواتيمها. «راجع كلام ابن تيمية عن الكرابيسي والأصبهاني تلميذه وانهما أول من قال بخلق التلاوة»، مجموع الفتاوى ١٢/ ٥٧٣.

(٤) من أمثالهما القائلين بأن اللفظ بالقرآن مخلوق. . . أبو الحسن الأشعري- وربما وقع منه ذلك في فترة الاعتزال التي دامت أربعين سنة- وأبو بكر الباقلاني، وأبو نعيم الأصبهاني، وأبو ذر الهروي، والقاضي عبد الوهاب المالكي " مجموع الفتاوى ١٢/ ٣٦٤. وافترى بعض الناس على البخاري أنه كان يقول هذا القول وجعله من اللفظية مما أوقع بينه وبين الذهلي المنسوب هو أيضاً للقول المناقض ، والذي أُنبِّه إليه في هذا المقام في لُجة الأحداث وتضارب الأقوال - أن الرؤية الصحيحه للصواب قد عَشِيَتْ مما سبب إقحام مثل البخاري في غمرة اللفظية، ومثل الذهلي في الطرف المناقض ، وذلك إمَّا من جَاهل لايتقن فهم الأمور، أو من مغرض يتربص بالمؤمنين الدوائر، فالبخاري ينتفي من كل ذلك، والذهلي لم أجد في كلامه مايدل على مانسب إليه. ويكفي امتداح ابن تيمية لهما قال: وكان الإثبات هو المعروف عند أهل السنة والحديث كالبخاري وأبي زرعة وأبي حاتم ومحمد ابن يحيى الذهلي وغيرهم من العلماء الخ ، انظر درء تعارض العقل والنقل٢/ ٩.

ز- (طائفة ممن ينتسب لأهل السنة تابعوا ابن كُلاَّب

(وتولد عن هذه طائفة «ح»)

(ح)" طائفة تقول إن اللَّه لايتكلم بصوت" هذه الطائفة ظهرت بعد ظهور ابن كُلاَّب وأتباعه وقد تأثرت ببعض أقوالهم وأفكارهم فقالوا: « إن اللَّه لم يتكلم بصوت» وهذه القضية أضيفت إلى البلايا التي مُنِيَتْ بها الأمَّة وواجهها سلفنا رحمهم اللَّه- وفيها جدال كبير وكتب ورسائل- وحتى نَفْهَمَ مُراد هؤلاء ووجه الحق في ذلك فإني أختصر رسالة صغيرة قوامُها صفحة للإمام عبد اللَّه بن يوسف الجويني والد إمام الحرمين ضمن مجموعة رسائل كتبها على منهج السلف لما هداه اللَّه إليه بعد تحرجه زماناً من تعسفات وتأويلات مشايخه . . . وهذا بعض رسالته«قال: وأما مسألة الحرف والصوت. . . فإن اللَّه قد تكلم بالقرآن المجيد وبجميع حروفه فقال تعالى "الم" وقال "المص" وقال "ق والقرآن المجيد" وكذلك جاء في الحديث« فينادي يوم القيامة بصوت يسمعه من بَعُدَ كما يسمعه من قَرُبَ» . . . فهؤلاء مافهموا من كلام اللَّه تعالى الا مافهموه من كلام المخلوقين، فقالوا: إن قلنا بالحروف فإن ذلك يؤدي إلى القول بالجوارح واللهوات« اللهوات: جمع لهاة وهي اللحمة المشرفة على الحلق في أقصى الفم وتجمع على لَهَوات ولَهيَّات، ولهي. . . . الخ . لسان العرب ١٥/ ٢٦٢» وكذلك إذا قلنا بالصوت أدى ذلك إلى الحلق والحنجرة عملوا في هذا من التخبط. . . . ثم يقول. . . : والتحقيق هو أن اللَّه تعالى قد تكلم قادراً والقادر لايحتاج إلى جوارح ولا إلى لهوات وكذلك له صوت كما يليق به يُسْمع ولايفتقر ذلك الصوت المقدس إلى الحلق والحنجرة، كلام اللَّه تعالى كما يليق به، وصوته كما يليق به ولا ننفي الحرف والصوت عن كلامه سبحانه لافتقارهما منا إلى الجوارح واللهوات، فإنهما في جناب الحق تعالى لايفتقران إلى ذلك ، وهذا ينشرح الصدر له ويستريح الإنسان به من التعسف والتكلف بقوله هذا عن ذلك. . . . فإن قيل: فهذا الذي يقرأه القارىء هو عَيْن قراءة اللَّه تعالى وعين تكلمه هو؟ قلنا لابل القارىء يؤدي كلام اللَّه تعالى والكلام إنما ينسب إلى من قاله مبتدئاً لا إلى من قاله مؤدياً مبلغاً. . . الخ كلامه، وهذه المسائل ضمن مجموعة الرسائل المنيرية١/ ١٧٥ باسم رسالة في إثبات الاستواء والفوقية ومسألة الحرف والصوت.

وقال الإمام أبو بكر ابن العربي عند تفسيره لآية ﴿**تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء الايسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً**﴾ الاسراء آيه ١٢ قال: « . . . . وترتيب القول هاهنا أنه ليس يستحيل أن يكون للجمادات- فضلاً عن البهائم- تسبيح بكلام، وإن لم نفقهه نحن عنها، اذ ليس من شرط قيام الكلام بالمحل عند أهل السنة- هيئة آدمية- ولاوجود بلَّة ولارطوبة، وإنما تكفي له الجوهرية أو الجسمية خلافاً للفلاسفة واخوتهم من القدرية الذين يرون الهيئة الأدمية والبلَّة والرطوبة شرطاً في الكلام. . . . ثم ذكر أن للباري تعالى نقض العادة وخرقها . وضرب أمثلة بحنين الجذع، وتسبيح الحصى، وتسليم الحجر . . . الخ أحكام القرآن لأبي بكر محمد ابن العربي، تحقيق علي البجاوي ٣/ ١٢١٥، فإذا كان هذا جائزاً في المخلوقات غير العاقلة فإنه في ذات اللَّه أولى وأعظم وأحرى أن يتكلم سبحانه بدون بلَّة أو رطوبة أو جوارح ومتى شاء سبحانه كلاماً يليق بجلاله وعظيم سلطانه » .

وعن هذه طائفة « ط »

وحدث مع هذا من يقول بقول ابن كُلاَّب : إن كلام اللَّه معنى واحد قائم بنفس المتكلم وهو الأمر بكل ماأمر به والنهى عن كل مانهى عنه، والإخبار بكل ما أخبر به، وإنه إن عُبِّر عنه بالعربية كان هو القرآن، وإن عُبِّر عنه بالعبريَّة كان هو التوراة [1]. وجمهور الناس من أهل السنة والمعتزلة وغيرهم أنكروا ذلك، وقالوا: إن فساد هذا معلوم بصريح العقل فإن التوراه إذا عُرِّبت لم تكن هي القرآن، ولامعنى: ﴿ **قل هو اللَّه أحد** ﴾ هو معنى ﴿ **تبت يدا أبي لهب** ﴾ وكان يوافقهم على إطلاق القول بأن التلاوة غير المتلو وأنها مخلوقه، من لايوافقهم على هذا المعنى، بل قصده إن التلاوة هى أفعال العباد وأصواتهم.

(ط) طائفة تقول إن القرآن الذي بين أيدينا عبارة وحكاية عن كلام اللَّه . . . . وتدعو الحاجة هنا إلى بيان أقوال طائفة انبثقت من هذه الطائفة الأخيرة " التي نفت الحرف والصوت " عن اللَّه، لأن صفاته قديمة لازمة لذاته، وعلى ذلك فكلامه قديم لازم له في ذاته ولا يتكلم بمشيئته وإرادته فاضطروا لقول « إن القرآن الذي تكلم اللَّه به كلامٌ نفسيٌ هو قديم وأما الذي بين أيدينا فهو عبارة وحكاية لذلك . . . . الخ » وقد اشتد انكار العلماء على هؤلاء - وقد عقد ابن القيم لهذه المسألة فصلاً في مختصر الصواعق ص٤٤٣- ٤٥٠ . وذكر الإسفراييني إنكار أحمد لهذا " لوامع الأنوار البهية " ١/ ١٣٩، وقد سئل ابن تيمية عن حروف القرآن وهلَ هي مخلوقة فكتب فيها فتوى مختصرة في مجموع الفتاوى ١٢/ ٥٧١، وممن أنكر ذلك الإمام محمد بن يحيى الذهلي مع ثلة من علماء السلف . انظر مجموع الفتاوى ١٢/ ٤٢١ .

(١) من هؤلاء أبو العباس القلانسي [وهو أحمد بن عبد الرحمن بن خالد من معاصري أبي الحسن الأشعري، واعتقاده موافق لاعتقاده في الإثبات ،انظر تبيين كذب المفترى لأبي علي بن الحسن ابن عساكر ص ٣٩٨] وأبو الحسن الأشعري - ولعل هذه مرحلته الثانية بعد تركه الإعتزال - والحارث المحاسبي، راجع درء تعارض العقل والنقل ٢/ ٦ لابن تيمية- وللوقوف على آراء وأقوال الكلابيةراجع على سبيل المثال مجموع الفتاوى ١٢/ ٣٦٦ - ٣٧٦ . وابن كلاب هو [أبو محمد عبد اللَّه بن سعيد بن كلاب القطان البصري- قال الذهبي : كان أقرب المتكلمين لأهل السنة، كان يقول بأن القران قائمٌ بالذات بلا قدرة ولامشيئة، وهذا ما سُبِقَ إليه أبداً، قاله في معارضة من يقول بخلق القرآن] . سير أعلام النبلاء ١١/ ١٧٤ . وقال ابَن تيمية . . . " وابن كلاب هذا كان قد نبغ في أواخر عصر الإمام أحمد وهو من متكلمة الصفاتية وطريقته يميل فيها الى مذهب أهل الحديث والسنة، ولكن فيها نوع من البدعة، لكونه أثبت قيام الصفات بذات اللَّه ولم يثبت قيام الأمور الإختيارية بذاته . وقد أنكر الإمام أحمد والأئمة هذا المذهب الذي أحدثه ابن كلاَّب ويحذرون من أصحابه . . الخ " مجموع الفتاوى ١٢/ ٣٦٦. وانظر مختصر الصواعق المحرقة ص٤٥٠ فصل مهم .

(*) وصار أقوام يطلقون القول بأن التلاوة غير المتلو، وأن اللفظ بالقرآن مخلوق فمنهم من يعرف أنه موافق لابن كُلاَّب، ومنهم من يعرف مخالفته له، ومنهم من لايعرف منه لاهذا ولاهذا، وصار أبو الحسن الأشعري ونحوه ـ ممن يوافق ابن كُلاَّب على قوله - موافقاً للإمام أحمد وغيره من أئمة السنة في المنع من إطلاق هذا وهذا، فيمنعون أن يقال: اللفظ بالقرآن مخلوق أو غير مخلوق، وهؤلاء منعوه من جهة كونه يقال في القرآن: - إنه يلفظ أو لايلفظ وقالوا: اللفظ: الطرح والرمي ومثل هذا لايقال في القرآن . . . . . ووافق هؤلاء على التعليل بهذا طائفة ممن لايقول بقول ابن كُلاَّب في الكلام كالقاضي أبي يعلي وأمثاله. ووقع بين أبي نعيم الأصبهاني وأبي عبدالله بن مندة في ذلك ماهو معروف (١) وصنّف أبو نعيم في ذلك كتابه (الرَّد على اللفظية والحلولية) ومال فيه إلى جانب النفاة بأن التلاوة مخلوقة، كما مال ابن مندة إلى جانب من يقول إنها غير مخلوقة، وحكى كل منهما عن الأئمة مايدل على كثير من مقصوده، لاعلى جميعه، فماقصده كل منهما من الحق وجد فيه من المنقول الثابت عن الأئمة مايوافقه. وكذلك وقع بين أبي ذر الهروي (٢) وأبي نصر السجزي، حتى

(*) من هنا الى قوله . . «في غير هذا الموضع» أذكره من باب إتمام الفائدة . . وليس هو من صلب مرادنا من كلامه رحمه الله، ويبقى من النص الكامل قدرٌ لا بأس به وسأذكر خلاصة أهم ما فيه في سطور.

(١) كان أبو عبد الله بن منده من الحنابلة القائلين بأن اللفظ بالقرآن غير مخلوق، وكان أبو نعيم الأصبهاني من الأشعرية القائلين بأن اللفظ مخلوق . . ووقع بينهما في هذه المسألة . . وقد زادت سطوة الحنابلة على أبي نعيم غفر الله للجميع . . انظر بعض ذلك في ترجمة أبي نعيم الأصبهاني / سير أعلام النبلاء ١٧/ ٤٥٣ .

(٢) هو عبد الله بن أحمد بن عبد الله بن غفير الأنصاري المالكي، أصله من هراة وتَمذهب بمذهب مالك، قال عبد الغافر الفارسي «كان أبو ذر زاهداً، ورعاً، عالماً سخياً، مشاراً إليه في التصوف» أخذ من أبي بكر الباقلاني وأبي بكر بن فورك من متكلمي أهل السنة، ترتيب المدارك للقاضي عياض ٤/ ٦٩٦، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للشيخ أحمد المقري، تحقيق د. إحسان عباس، ٢/ ٢٧٥، الديباج المذهب لابن فرحون (٢/ ١٣٢).

صنف أبو نصر السجزي كتابه الكبير في ذلك المعروف بالإبانة ، وذكر فيه من الفوائد والآثار والانتصار للسنة وأهلها أموراً عظيمة المنفعة، لكنه نصر فيه قول من يقول: لفظي بالقرآن غير مخلوق، وأنكر على ابن قتيبة وغيره ماذكروه من التفصيل، ورجح طريقة من هجر البخاري، وزعم أن أحمد بن حنبل كان يقول: لفظي بالقرآن غير مخلوق ، وأنه رجع إلى ذلك.

وأنكر مانقله الناس عن أحمد من إنكاره على الطائفتين، وهي مسألة أبي طالب المشهورة. وليس الأمر كما ذكره، فإن الإنكار على الطائفتين مستفيض عن أحمدعند أخص الناس به من أهل بيته وأصحابه الذين اعتنوا بجمع كلام الإمام أحمد كالمروزي والخلاّل وأبي بكر بن عبد العزيز وأبي عبدالله بن بطّة وأمثالهم، وقد ذكروا من ذلك مايعلم كل عارف له أنه من أثبت الأمور عن أحمد.

وهؤلاء العراقيون أعلم بأقوال أحمد من المنتسبين إلى السنة والحديث من أهل خراسان، الذين كان ابن مندة وأبو نصر إسماعيل الهروي وأمثالهم يسلكون حذوهم. ولهذا صنّف عبدالله بن عطاء الإبراهيمي كتاباً فيمن أخذ عن أحمد العلم، فذكر طائفة منهم أبو بكر الخلال، وظن أنه أبو محمد الخلال شيخ القاضي أبي يعلي وأبي بكر الخطيب، فاشتبه عليه هذا بهذا.

وهذا كما أن العراقيين المنتسبين إلى أهل الاثبات من أتباع ابن كُلاّب كأبي العباس القلانسي، وأبي الحسن الأشعري، وأبي الحسن علي بن مهدي الطبري، والقاضي أبي بكر ابن الباقلاني، وأمثالهم، أقرب إلى السنة وأتبع لأحمد بن حنبل وأمثاله من أهل خراسان المائلين إلى طريقة ابن كُلاّب، ولهذا كان القاضي أبو بكر ابن الطيب يكتب أجوبته أحياناً: محمد ابن الطيب الحنبلي، كما كان يقول الأشعري، إذ كان الأشعري وأصحابه منتسبين إلى أحمد بن حنبل وأمثاله من أئمة السنة. وكان الأشعري أقرب إلى مذهب أحمد بن حنبل وأهل

السنة من كثير من المتأخرين المنتسبين إلى أحمد الذين مالوا إلى بعض كلام المعتزلة، كابن عقيل[1] وصدقة بن الحسين [2] وابن الجوزي وأمثالهم.

وكان أبو ذر الهروي قد أخذ طريقة ابن الباقلاني وأدخلها إلى الحرم، ويقال إنه أول من أدخلها إلى الحرم ، وعنه أخذ من أخذه من أهل المغرب فإنهم كانوا يسمعون عليه البخاري ويأخذون ذلك عنه، كما أخذه أبو الوليد الباجي ثم رحل الباجي إلى العراق فأخذ طريقة الباقلاني عن أبي جعفر السمناني الحنفي قاضي الموصل، صاحب ابن الباقلاني، ونحن قد بسطنا الكلام في هذه المسائل وبيَّنا ماحل فيها من النزاع والاضطراب في غير هذا الموضع. أ. هـ.

أكتفى بهذا القدر من كلام الإمام ابن تيمية وأشير فيما يلى إلي باقي نَصه ليكمل الانتفاع بكلامه.

بيَّن رحمه اللَّه أن مسألة اللفظ من الأمور المبتدعة المجملة المشتبهة، لما فيها من حق وباطل ، واشتباه وفتنة، وبخلاف الألفاظ المأثورة التي بينت معانيها، فإنه تحصل بها الألفة كما قال مالك : « إذا قل العلم ظهر الجفاء، واذا قلت الأثار كثرت الأهواء».

---

(١) هو أبو الوفاء علي بن عقيل بن محمد بن عقيل البغدادي الظفري، شيخ الحنابلة في عصره، كان إماماً مبرزاً، كبير العلوم، خارق الذكاء، مكباً على الإشتغال والتصنيف، قال ابن حجر : « له كتاب الفنون في أزيد من أربعمائة مجلد إلا أنه خالف السلف، ووافق المعتزلة في عدة بدع . . . وهذا الرجل من كبار الأئمة ، نعم كان معتزلياً ثم أشهد على نفسه أنه تاب عن ذلك وصحت توبته ثم صنف في الرد عليهم . سير أعلام النبلاء ١٩/ ٤٣٣، مرآة الجنان وعبرة اليقظان٣/ ٢٠٤، النجوم الزاهرة ٥/ ٢١٩، لسان الميزان ٤/ ٢٤٣ .

(٢) هو صدقة بن الحسين بن بختيار بن الحداد البغدادي الفقيه الأديب، الشاعر المتكلم أبو الفرج ولد سنة ٤٧٧هـ . قرأ علم الجدل والكلام، والمنطق والفلسفة، قال ابن القطيعي: كان بينه وبين ابن الجوزي مباينة شديدة، وكل واحد يقول في صاحبه مقالة، اللَّه أعلم بها . الذيل على طبقات الحنابلة ، للإمام عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي١/ ٣٣٩ .

ثم بين رحمه اللّه أن دين المسلمين مبني على اتباع كتاب اللّه وسنة رسوله وماتفقت عليه الأمة، فهذه أصول ثلاثة معصومة، وماتنازعت فيه الأمة يرد إلى اللّه والرسول، ولايجوز بحال أن ينصب أي شخص يدعو إلى طريقته ويوالي عليها ويعادي. كما يفعل ذلك المبتدعة في أقوالهم المجملة التي اتخذوها ديناً.

ثم ذكر العظائم الأربع التي ارتكبتها الجهمية: -

(أ) ردهم لنصوص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

(ب) ردهم مايوافق ذلك من معقول العقلاء.

(ج) جعل ماخالف ذلك من أقوالهم المجملة أو الباطلة هي أصول الدين.

(د) تكفيرهم، أو تفسيقهم، أو تخطئتهم لمن خالف الأقوال المبتدعة المخالفه لصحيح المنقول وصريح المعقول. وأخيراً بيّن منهج أهل السنة والجماعة وأنهم على نقيض حال المبتدعة، فاعتمادهم ومرجعهم إلى كتاب اللّه وكلام رسوله وإليهما ترد موارد النزاع، ومن اجتهد فاخطأ وكان قصده متابعة سبيل المؤمنين غفر له خطأه. (١)

(١) انظر هذا المختصر في الجزء الأول من درء تعارض العقل والنقل من ص٢١٧ الى ٢٧٩.

المبحث الرابع
عرض تفصيلي لما حصل بين الإمامين الذهلي والبخاري
المطلب الأول
مبررات الحديث عن هذا الموضوع

الحديث عن الوحشة والخلاف بين الإمامين الجليلين والعالمين البحرين، الإمام محمد بن إسماعيل البخاري والإمام محمد بن يحيى الذهلي، ليس من السهولة واليسر بمكان، وذلك لأمور:

أولاً: أنّ الحديث عنهما حديث عن علمين كبيرين من أعلام أمتنا المجيدة، وإنّ أقل خطأ في عرض أو توجيه ماحصل بينهما في غير محله لهو ظلمٌ لهما، وهلكة للمتحدث . . . . .

ثانياً: أن النصوص في تلك القضيَّة ليست من الكثرة والتنوع بالقدر الذي يسمحُ بإعطاء صورة متكاملة للأحداث . . . وبعض تلك الأخبار فيها مقال.

ثالثاً: أن كلا الإمامين يدافعان عن السنة ويقمعان البدعة، كما يتجلَّى من تراجمهما وأقوالهما . . . وهما كذلك . . فياليت شعري مالذي أدّى لهذه الحادثة المنغصة . . والنهاية المؤلمة بينهما!!؟ وهما يسيران في درب واحد.

ومن نظر في التاريخ الإسلامي يجد أن هذه الحادثة ماهي إلا حلقة من سلسلة حلقات من الاختلاف والتَّضاد قبلهما وبعدهما، والأغلب على هذه الأحداث أن تكون بين صاحب سنة واتباع . . وصاحب مذهب وابتداع، وأما هذه القضية التي بين أيدينا فهي بين صاحبي سنة واتباع وهذا مما يزيد الموقف حَرَجاً ويتطلب المزيد من الحذر والحيطة.

لهذه الأسباب وغيرها تهيَّبت الكتابة في الموضوع. . . ولكني أجد نفسي مضطراً لذلك وهذا لأمور أيضاً.

(أ) أن هذه الرسالة الحديثية عن الإمام المحدث الذهلي، وفي ثنايا ترجمته هو والبخاري في أي كتاب تبرز أمامنا هذه القضية فكان من الضروري اللازم عرضها ومعرفة أسبابها ووجه الحق فيها.

(ب) من الأسباب التي دفعتني لاختيار هذا الموضوع قراءتي هذه الحادثة، ممّا آلمني كثيراً ماحصل بينهما، فبحثت عن جهود ومكانة الذهلي، فوجدته علماً سلفياً بارزاً فشُغِفْتُ بمتابعة السير ومعرفة مجريات وأسباب هذه الوحشة، رغم البعد الزماني والمكاني الذي يفصل بيننا وبين هذين الإمامين، مع الإدراك مسبقاً لطبيعة البشر، ومواقفهم، وتنوعهم، وكثرة أقاويلهم حينما تكون هناك قضية تعصف رياحها بأهل العلم والدعوة فإنه عادة ماتصل نتائج هذه العاصفة إلى الأجيال الخالفة إلا - وهذا هو الغالب الأعم - وقد أضيف إليها وزيد عليها من أقوال وزيادات المتقولين على اللّه ورسوله وعلى أهل الفضل والعلم بغير علم ولادليل.

(ج) حتى تكون هذه المحاولة المتواضعة، نواة لدراسات في مثل هذه القضايا. . . وبداية سلسلة لتحقيق ودراسة كلِّ حدَث وخلاف بين عالمين أو جماعتين من سلفنا الصالح على مدى التاريخ، وأن تكون بمنظار الحق والدفاع عن الدِّين، لئلاَّ تستغل هذه الأحداث لصالح المستغربين والمبتدعة المتصيِّدين لكل مثلبة. . . فيشوهوا تاريخ أمتنا ورجالاتها، وإن كان أولئك أمة قد خلت لها ماكسبت ولنا مانكسب. إلا أنَّ ذلك لايجعلنا نقف مكتوفي الأيدي أمام

ماحدث بينهم . . . لأن بعض تلك الخلافات القديمة ما زالت نارها مستعرة إلى وقتنا هذا (*).

لذا أجده لزاماً أن ننقح تاريخ أمتنا، وماحصل بين علمائنا ، وتوجيهه لئلا يستغل لأهداف ورؤىً مشبوهة.

---

*) وعلى سبيل المثال :- (١) ماحدث عندما ترجم الحافظ الخطيب البغدادي للإمام أبي حنيفة في تاريخ بغداد، من ردود فعل استمرت إلى عصرنا الحاضر، متمثلة في الكوثري** ومن معه مهاجماً لأهل السنة بحجة الدفاع عن أبي حنيفة . . . وقد سبق في ٣٠١-٣٠٣ ذكر نماذج من تصعيد الخلاف بين السلف مما لايليق بأمثالهم.

(٢) مانراه ومانسمعه من مروّجي أن القرآن بشري أي موضوع ومؤلف* قام بتأليفه محمد صلى اللّه عليه وسلم . . . أو مانسمعه من خروج كتب مؤلفة تضاهي كتاب اللّه عز وجل . . كالدساتير المحكمةً في الشعوب، ممّا يجعلها تحتل مكانة كتاب اللّه وسنة رسوله في التحاكم إليهما في كل شئون الحياة . . . وماهذه المرئيات إلا جهمية حديثة وباطنية خبيثة . . . تسللت بأثواب وشعارات جديدة لتنحية كتاب اللّه عز وجل والتشكيك في نسبته إلى اللّه ومن ثَم في أحقيته أن يحكم الناس.

إن الاستشراق وأتباعه والتبشير وأذنابه دعاة المذاهب الهدامة المعاصرة * وغيرها . . . ماهم إلا رؤوس برزت لتعيد ماتناساه الناس أو نسوه من أفاعيل الجهمية والمعتزلة والمرجئة والقدرية والفرق الضالة في عصورنا المتقدمه . . . وأولئك ماهم إلا أفراخ اليهود والنصارى والمتفلسفة وسواهم.

** اقرأ " التنكيل بما في تأنيب الكوثري من الأباطيل " للعلامه عبدالرحمن بن يحيى المعلمي العتمي اليماني رحمه اللّه تعالى وهو كتاب فريد في بابه كثير المنافع رائع العرض والرد.

* طالع على سبيل المثال " رؤية إسلامية للاستشراق " للدكتور أحمد عبدالحميد غراب ص ٣١- ٣٦ تحت مبحث " موقفهم من القرآن الكريم و" انظر " الحركة الفكرية ضد الإسلام " للدكتور بركات عبد الفتاح دويدار مبحث " الغزو الفكري حديثاً " ، " المستشرقون مع تلاميذهم" ص ٧٨ وفصل " طعنهم في القرآن" ص ٢٠٠ .

(*) انظر الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، ندوة الشباب الإسلامي . وطالع مذاهب فكرية بمعاصرة . للمفكر محمد قطب .

المطلب الثاني
(عرض الأحداث)
وبين يديها أنبه على مايلي

التنبيه الأول

إن فتنة خلق القرآن مثلت صراعًا قويًا بين الفكر الاسلامي، والفكر الفلسفي[1] ومثلت تهديداً صريحا لأصل من أصول الدين الإسلامي (ووهو القرآن الكريم). ومما يدل على جدية هذا الصراع، تطاير رؤوس العلماء وإجابة الكثير منهم كرهاً أو خوفاً من التعذيب أو القتل، وَوَرَّوْا في إجاباتهم، إلا إمام أهل السنة والجماعة - الإمام أحمد بن حنبل - الذي صرح من بداية المحنة بالقول الحق، ولاقى في ذلك مالاقاه من الشدائد والكرب بعدما انفض عنه الأصحاب[2] وبقي وحده شاهداً للّه في الأرض على أمانة الدين أمام جحافل

---

(١) معلوم أن الفكر الإسلامي نبع من مصادر سماوية(القرآن والسنة)، لذا فهو قوي الدعائم، عميق التأثير، تقبله كل النفوس العطشى للحق على مدار التاريخ، ولذا رأينا أجيالاً تنعمت بهذا الفكر بدءاً من الصحابة وتابعيهم ومن بعدهم، وكان هذا الفكر المرتكز على وحي السماء إسلامياً بحتاً، لم تلوثه عقليات البشر، ولذلك ملأحياة تلك الأجيال المباركة بالسعادة والهناء والطمأنينة قلباً وروحاً وعقلاً، وأوجد لكل التساؤلات عن الغيب والشهادة إجاباتها الصريحة (انظر تفصيل ذلك في، التفكير الفلسفي الإسلامي، د٠ سليمان دنيا من ص ٣٠٤ - ٣٢٣).
وظل يزاول نشاطه لما حمله ودافع عنه أتباعه، ومع مرور الزمن واختلاط ثقافة المسلمين بثقافات البلاد المفتوحه، لعبت أياد وعقليات دورها، فأفسدت ومأأصلحت، واجتالت أقواماً عن منهج الحق، إلى علوم اليونان وفلسفتهم، وأثيرت مسائلهم، وحكمت في معظم مباحث الدين الإسلامي الحنيف، وبالأخص مسائل أصول الدين، وقد اضطلع المعتزلة بمهمة التأليف بين الفلسفة ومسائل العقيدة، وطبعي أن تفشل هذه المهمة وإن كانت قد تركت آثارا سيئة على العلم والمجتمع. التفكير الفلسفي الإسلامي ٣٢٤, ٣٢٦, ٣٢٧, ٣٣٤, ٣٣٥ .

(٢) انظر تفاصيل المحنة، والعلماء الذين أجابوا فيها، والثلاثة الذين ثبتوا مع أحمد ثم رجع منهم اثنان وأجابا مكرهين، وثبت مع أحمد الشاب الصغير محمد بن نوح والذي مات في الطريق إلى المأمون. مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي ص ٣١٠، وسير أعلام النبلاء ١١/ ٢٣٦، والبداية والنهاية ١٠/ ٢٧٢.

الضـلال والزندقة والتأويل. وكان لثباته أعلى اللّه في الجنان مقامه على الحق من بداية المحنة - ٢١٨هـ - على يد المأمون، إلى نهايتها - ٢٣٤ - على يد المتوكل، أثر بالغ في الأمة. . . . من حكامها إلى علمائها إلى عامتها . . . . ، فقد علمهم أن الحق يعلو ولو قام به واحد والباطل يندحر ولو دندن به ألوف، وتحقق كلام الأعرابي الذي وعظ الإمام موعظة وجيزة بقي صداها في نفسه ومسمعه حاثاً على الثبات والصبر.

قال الإمام أحمد: « ماسمعت كلمة منذ وقعت في هذا الأمر الذي وقعت فيه أقوى من كلمة الأعرابي كلمني بها في رحبة طوق. قال لي: « ياأحمد إن يقتلك الحق مت شهيداً وإن عشت عشت حميداً » قال: فقوى قلبي[1].

وعاش أحمد حميداً ذكره في العالمين، وانتسب إليه الألوف حتى من المخالفين، وأصبح إماماً قامت بعده المدرسة الحنبلية المتميزة بعقيدتها السليمة، ومنهجها السني الواضح إلى زماننا هذا. . .

لذا فقد مُكِّنَ الحنابلة بعد إمامهم، وأصبحت لهم سطوة على أهل البدع.

روى ابن الجوزي بسنده إلى أبي الفضل قال: « بلغني أنه ذكر عند المتوكل بعد موت أحمد، أن أصحاب أحمد يكون بينهم وبين أهل البدع الشر فقال المتوكل لصاحب الخبر: - لا ترفع إليّ من أخبارهم شيئاً، وشد على أيديهم فانهم وصاحبهم من سادة أمة محمد. وقد عرف اللّه لأحمد صبره وبلاءه ورفع علمه أيام حياته وبعد موته. أصحابه أجل الأصحاب، وأنا أظن أن اللّه تعالى يعطي أحمد ثواب الصديقين »[2]. وعلى هذا فقد حملوا بعده لواء العقيدة، وتشددوا برويّة وبدون رويّة في قضية خلق القرآن، وربيبتها مسألة اللفظ بالقرآن، وقد مر بنا افتراقهم إلى طوائف في فهم مراد ومواقف وأقوال الإمام رحمه اللّه

---

(١) مناقب أحمد، لابن الجوزي ص ٣١٣.

(٢) المصدر السابق ص ٣٠٣.

تعالى، وأصبح من خالف ماستقر عندهم من مذهبه عرضةً للمساءلة والإيذاء[1].

وتحسن الإشارة في هذا الموضوع إلى أن « حنابلة نيسابور ومنهم الذهلي » وقفوا عند نصوص أحمد، وتابعوه بصلابة، بينما كان لدى « حنابلة بغداد ومنهم البخاري » مرونةً كان من نتيجتها تحليل وفهم نصوص الإمام كما أراد، وذلك بسبب مخالطته والقرب منه، وكل يريد السداد والمتابعة.[2]

وهذا الموضع يسوقنا للتنبيه الثاني وهو الذي سبَّبَ الخلاف.

---

(١) وهذا تصوير ابن قتيبة لحالهم هذه، فهو أحد من عايش المحنتين، قال في الاختلاف في اللفظ ص٥١: «وقد ابتلي بالفريقين المستبصر المسترشد، وبإعانتهم ومحنتهم وإغلاظهم لمن خالفهم وإكفاره وإكفار من شك في كفره، فانه ربماورد الشيخ المصْرَ فقعد للحديث وهو من الأدب غُفْل ومن التمييز ليس له من معاني العلم إلا تقادم سنه، وأنه قد سمع ابن عيينة، وأبا معاوية، ويزيد ابن هارون وأشباههم، فيبدأونه قبل الكتاب بالمحنة. فالويل له إن تلعثم أو تمكث أو سعل أو تنحنح قبل أن يعطهم مايريدون!! فيحمله الخوف من قدحهم فيه وإسقاطهم له على أن يعطيهم الرضا، فيتكلم بغير علم، ويقول بغير فهم، فيتباعد من اللّه في المجلس الذي أمَّل أن يتقرب فيه منه! وإن كان يعقد على مخالفتهم سام نفسه إظهار مايحبون ليكتبوا عنه. وإن رأوا حدثاً مسترشداً أو كهلاً متعلماًسألوه فإن قال لهم: أنا أطلب حقيقة هذا الأمر وأسأل عنه ولم يصح لي شيء بعد وإنما صدقهم عن نفسه واعتذر بعذر اللّه يعلم صدقه، وهم يعلمون أنه لم يكلفه إذا لم يعلم إلا أن يسأل ويبحث ليعلم كذبوه وقالوا" خبيث فاهجروه ولاتقاعدوه"

(٢) انظر في تقرير هذا الأمر كلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى ١٢/٢٠٨.

التنبيه الثاني :

أن بعض طلبة العلم لم يفهموا كلام البخاري « أن أفعال العباد مخلوقة، وألفاظهم من أفعالهم » فافتروا عليه بأنه قال : « لفظي بالقرآن مخلوق »[1] الأمر الذى أوقع الذهلي في خلاف معه. وقد نسب إليه هو الاخر قول « لفظي بالقرآن غير مخلوق »[2]. وهذه الإطلاقات المنسوبة إليهما لاتؤخذ على عواهنها . . . . . فالخلاف في حقيقته لفظي كما هو مبين أدناه، وقد مهدت بهذا التمهيد لأنبه على الفرق بين قول كل من البخاري (المنسوب ظلماً وجهلاً إلى اللفظة النافية (و الذهلي) المنسوب ظاهراً إلى اللفظية المثبتة) وبين قول بعض من انتسب إلى هاتين الفرقتين قبلهما وبعدهما ممن غلظوا المذهبين ، وزادوا عليهما شروراً كثيرة، وخرجوا بها إلى معان غريبة وخطيرة سبق وأن أشرنا إليها في المبحث السابق[3].

---

(١) هذه الجملة نفاها البخاري عن نفسه مراراً وتكراراً لاشتمالها على حق وباطل، وإن كان قد لَوح للحق الذي فيها ولم يصرح خوفاً من الخوض في الكلام. انظر مجموع الفتاوى لابن تيمية١٢/ ٢٠٧، ١٢/ ٣٦٤ للوقوف على قول المفترين على البخاري.

(٢) وهذه الجملة نسبت للذهلي وجماعة من المحدثين كأبي زرعة وأبي حاتم الرازيين، والمصيصي وغيرهم. قال ابن تيمية : " والقول بأن اللفظ بالقرآن غير مخلوق" نسب إلى محمد بن يحيى الذهلي وأبي حاتم الرازي ، بل وبعض الناس ينسبه إلى أبي زرعة أيضاً، ويقول: أنه هو وأبو حاتم هجرا البخاري لما هجره محمد بن يحيى الذهلي" مجموع الفتاوى ١٢/ ٢٠٧، ومع إطلاقهم هذا القول المجمل المشتبة إلا أن مرادهم صحيح وصواب موافق لما أورده الإمام أحمد ، قال ابن تيمية« ومرادهم أن القرآن المسموع غير مخلوق، وليس مرادهم صوت العبد» انظر درء تعارض العقل والنقل١/ ٢٦٢، وعلى هذا فمراد الذهلي ومن معه حق ولكنهم تهيبوا القول بخلق اللفظ ،فأطلقوا عدم الخلقية عليه مع اعترافهم بأن فعل العبد مخلوق ».
أخلص من كل ماسبق، مع ماورد في المسألة من اختلاف وتشعب وجهات النظر أن مرادهم جميعاً في أساسه صحيح موافق للسنّة. ولكن اطلاقات بعضهم وتلويحات بعضهم الآخر مع الحذر الشديد أن يصدر من كل منهما مايخالف السنة ،«التي قررها إمامهم الإمام أحمد» أدى إلى نشوب سوء الفهم.

(٣) وانظر تفصيل هذه المعاني للطائفتين أيضاً في مجموع الفتاوى ١٢/ ٣٩٢ بالنسبه للفظية النافية، و١٢/ ٣٩٤ للفظية المثبتة.

وقد خالط الفرقتين ممن انتسب إلى أهل السنة وتأثر أو درس علم الكلام الذي اتفق البخاري والذهلي على ذمه والتحذير منه. ولعل ماتقدم من التنبيهات يؤذن بالحديث عن تلك الأحداث وعرضها والتي أسلسلها على النحو التالي :

(أ) قدوم البخاري إلى نيسابور وماحدث له فيها.

قال أبو سعيد حاتم بن أحمد الكندي : سمعت مسلم بن الحجاج يقول : لما قدم محمد بن إسماعيل نيسابور مارأيت والياً ولا عالماً فعل به أهل نيسابور مافعلوا به، استقبلوه مرحلتين أوثلاثة، فقال محمد بن يحيى في مجلسه: من أراد أن يستقبل محمد بن إسماعيل غداً فليستقبله، فاستقبله محمد بن يحيى، وعامة العلماء ، فنزل دار البخاريين، فقال لنا محمد بن يحيى : لاتسألوه عن شيء من الكلام، فانه إن أجاب بخلاف مانحن فيه، وقع بيننا وبينه، ثم شمت بنا كل حروري، وكل رافضي، وكل جهمي، وكل مرجيء بخراسان[1] قال: فازدحم الناس على محمد بن إسماعيل، حتى امتلأ السطح والدار فلما كان اليوم الثاني أو الثالث قام إليه رجل فسأله عن اللفظ بالقرآن فقال : (أفعالنا مخلوقة، وألفاظنا من أفعالنا)، فوقع بينهم اختلاف، فقال بعض الناس قال : لفظي بالقرآن مخلوق ، وقال بعضهم : لم يقل حتى تواثبوا، فاجتمع أهل الدار فأخرجوهم[2].

وقال أبو حامد الأعشى : رأيت محمد بن اسماعيل في جنازة أبي عثمان سعيد بن مروان، ومحمد بن يحيى يسأله عن الأسامي والكنى وعلل الحديث

---

(١) في هذا الاستقبال والنهي عن السؤال إشارة إلى براءة ساحة الذهلي من تعمده امتحان البخاري باللفظ كما في رواية أبي أحمد بن عدي الآتية : وهي رواية منقطعة و مبهمة، وحرصه على حفظ ماء الوجه بين أهل الفرق المنحرفة، ويبدو من كلامه أن للبخاري قولاً مغايراً لما ذهب إليه وقد كانت تصل اليه الرسائل من بغداد بأخبار البخاري، وهنا لم يجزم بصيغة معينة لمذهب البخاري حتى بعد حين، وصلت إليه الأنباء وحصل اللبس.

(٢) سير أعلام النبلاء١٢/ ٤٥٨، وتاريخ الإسلام حوادث" ٢٥١-٢٦٠" هـ ص ٢٦٩.

ويمر فيه محمد بن إسماعيل مثل السهم، فما أتى على هذا شهر حتى قال محمد ابن يحيى : ألا من يختلف إلى مجلسه فلا يختلف إلينا، فإنهم كتبوا من بغداد أنه تكلم في اللفظ، ونهيناه فلم ينته، فلا تقربوه ، ومن يقربه فلا يقربنا، فأقام محمد بن إسماعيل هاهنا مده ثم خرج إلى بخارى(١).

ويمكن تحديد بداية الاختلاف بمعرفة سنة وفاة سعيد بن مروان فقد ذكر الكلاباذى عن البخاري نفسه قوله أنها بنيسابور يوم الإثنين النصف من شعبان سنة ٢٥٣هـ وصلى عليه محمد بن يحيى الذهلي (٢).

وساق الذهبي بسنده إلى محمد بن مسلم خشنام قال : سئل محمد بن إسماعيل بنيسابور عن اللفظ، فقال : حدثني عبيد اللّه بن سعيد- يعنى أبا قدامة - عن يحيى بن سعيد هو القطان، قال : أعمال العباد كلها مخلوقة، فمرقوا عليه، وقالوا له بعد ذلك : ترجع عن هذا القول، حتى نعود إليك؟ قال: لا أفعل إلا أن تجيئوا بحجة فيما تقولون أقوى من حجتي وأعجبني من محمد بن إسماعيل ثباته(٣).

---

(١) السير ١٢/ ٤٤٥، تاريخ بغداد٢/ ٣١، طبقات الشافعية الكبرى للسبكي٢/ ٢٢٩.

(٢) رجال صحيح البخاري المسمى "الهداية والإرشاد في معرفة أهل الثقة والسداد الذين أخرج لهم البخاري في صحيحه، للإمام أبي نصر أحمد بن محمد البخاري الكلاباذي، تحقيق عبد الله الليثي. ٢/ ٨٧٢.

(٣) السير١٢/ ٤٥٤، تاريخ بغداد٢/ ٣٠ وهذه الرواية تفيدنا أن الذهلي ليس له ذكر ولاأمرٌ بسؤال البخاري. مما يدل على أن عامة طلبة العلم وحتى العوام لديهم رد فعل لقضية خلق القرآن، وماتفرع منها كهذه المسألة. . . وإن كان الحق الأبلج لم يتضح لهم تماماً. . . . وقد كانت خراسان من المجتمعات الإسلامية التي تظلها السنة النبوية وأهلها ينافحون عنها بشدة قال الإمام الذهبي رحمه اللّه :-«وكانت السنةقائمة الدولة بالأندلس وخراسان، وقَلَّ أمرها وضعف بمصر والشام والمغرب والعراق، وماذاك الا لظهور دولة الشيعة العبيدية فلله الأمر جميعاً» رسالة :-" ذكر من يعتمد قوله في الجرح والتعديل" ص١٩٦ ضمن مجموعة رسائل حققها أبو غدة جمعها باسم" اربع مسائل في علوم الحديث" . . ولايستبعد بحال من الأحوال أن يكون كثير من طلبة العلم بنيسابور التي تعتبر المنافس الأول لبغداد في العلم والعلماء- قد علموا حال البخاري قبل أن يصلهم، والحماس في طلبة العلم أمر معلوم، لذا نراهم مرقوا عليه لما أجاب بخلاف مااستقر عندهم في المسألة- بصرف النظر عن دقة مذهب البخاري- لأن الناس بعد المحنتين =

ومما تنبغي الإشارة إليه في هذا المقام أن الروايات التي وجدتها في أخبار الإمامين واختلافهما في هذه القضية ليست من الكثرة والقوة بمكان، بحيث يمكن للباحث في حال توفر الروايات لديه أن يحيط بالقضية من جميع جوانبها بحثاً وتحليلاً يُمكِّنه من الإحاطة بجميع متعلقاتها. أمّا وأن الحال على غير هذا، وأن الذي يوجد بين أيدينا وهو ما استطعنا الوصول إليه، هو روايات قليلة مبثوثة في المصادر، وبعضها تكتنفه صيغة الإبهام والإنقطاع فإن الأمر يحتاج إلى تثبت وروية وأناة في البحث، وترتيب للمقدمات لنصل إلى أقرب وأصح النتائج بإذن الله.

ومن هذه الروايات ما ذكره الحافظ أبو أحمد بن عدى قال: ذكر لي جماعة من المشايخ[1]: أن محمد بن اسماعيل لما ورد نيسابور، اجتمع الناس عليه، حسده بعض من كان في ذلك الوقت من مشايخ نيسابور، لما رأوا اقبال الناس عليه، واجتماعهم عليه فقال لأصحاب الحديث: إن محمد بن اسماعيل يقول: اللفظ بالقرآن مخلوق " فامتحنوه " في المجلس، فلما حضر الناس مجلس البخاري، قام اليه رجل فقال: يا أبا عبد اللّه ما تقول في اللفظ بالقرآن، مخلوق هو أم غير مخلوق ؟ فأعرض عنه البخاري، ولم يجبه، فقال الرجل:

= وخصوصاً بالمشرق وقفوا عند نصوص الإمام أحمد والتزموا بها.. وهي عدم الخوض مطلقاً في هذه القضايا، وأصبح لديهم حساسية مفرطة إذا نُسبَ الخَلْقُ إلى أى شيء في القرآن، ويصور ذلك أبلغ تصوير ابن قتيبة اذ يقول: -« وقد ألف الناسَ " غير مخلوق " وأنسوا به حتى أنه ليخيل إليَّ أن رجلاً لو ادعى أن العرش غير مخلوق لوجد على ذلك أشياعاً ينتحلون السنة فماذا جَرَّ جهم لارحمه اللّه على متبعيه بنحلته، وعلى مخالفيه ببغضته» أ هـ الاختلاف في اللفظ لابن قتيبة ص٥٥.

(٢) حقق الحافظ صلاح الدين أبي سعيد العلائي عن جماعة من العلماء أن مثل هذه الصيغ في الأسانيد صورته صورة المتصل، ولكن حكمه حكم المنقطع لعدم الاحتجاج به، جامع التحصيل في أحكام المراسيل ص ٩٦ تحقيق حمدي السلفي، وانظر " الصناعة الحديثية في السنن الكبرى للبيهقي " ص٥ تأليف د. نجم بن عبدالرحمن خلف.

يا أبا عبدالله، فأعاد عليه القول، فأعرض عنه، ثم قال في الثالثة، فالتفت اليه البخاري، وقال : القرآن كلام الله غير مخلوق، وأفعال العباد مخلوقة والإمتحان بدعة، فشغب الرجل الناس، وتفرقوا عنه، وقعد البخاري في منزله (١).

ومع أن هذه الرواية في سندها ابهام واضح من خلال عبارة " جماعة من المشايخ " وانقطاع من خلال عبارة " ذكر لي " فهي تخالف الرواية الأولى التى رواها الإمام مسلم بن الحجاج والتى فيها نهيه الصريح بألاّ يسألوه عن الكلام حتى لايقع بينهما، والذهلي يعلم أن البخاري يخالفه فيما يقول، وذلك مما يصله ويكتب إليه من بغداد كما في الرواية الثانية، وعلى هذا فهو ليس بحاجة الى إمتحانه، ثم كيف يأمر بالامتحان وينهى عنه في آن واحد ؟! وزد على ذلك أن هذا القول ليس بالضرورة عن الإمام الذهلي، فإن الرواة أبهموا جماعة الحسدة ولم يصرحوا بالذهلي ولاغيره، والذهلي وان كان عَلَمَ نيسابور وواجهتها فإن تلك الناحية تزخر بعشرات من العلماء والمشايخ، وطبعي أن يتفاعلوا مع مستجدات الأحداث وأن تكون لهم مواقف سلبية أو إيجابية بحسب ما فهموا من المسألة .

لذا فإن نفي هذا القول وهو " الامتحان " أقوى من إثباته، بدليل رواية الامام مسلم المصرح فيها بالسماع عنه .

ومن القراءة المتأنية في النصوص الثلاثة السابقة : يظهر أن إطلاق « صفة الحسد » على الإمام الذهلي من أول وهلة، وجعله موقفاً عملياً يتحرك من خلاله، ويشتد على الامام البخاري، أمر يحتاج إلى نظر وتأمل دقيقين .

وهذا الإطلاق لا تحتمله النصوص بقدر ما تحتمل حيثيات أخرى قبله .

---

(١) هدي الساري مقدمة فتح الباري شرح صحيح البخاري ص ٤٩٠، السير ١٢/ ٤٥٤ .

فقاريء الرواية الأولى التى رواها مسلم بن الحجاج، خالي الذهن من توجيهات وتحليلات عدد من الكتَّاب المتأخرين، لا يلمس فيها غير أريحية الإمام الذهلي وذلك بإستقباله للإمام البخاري، وسلامة صدره عليه .

والأمر الآخر : تمنيه حفظ ماء الوجه بين أصحاب الفرق المنحرفة لئلا يشمتوا بهما وهما من أهل السنة، لذا أمر طلبته أن يستفيدوا منه العلم، ولا يسألوه عن اللفظ . . وكان لديه إحساس بأن للبخارى فيها رأياً مخالفاً لرأيه .

والأمر الثالث في الرواية : افتراق من في الدار إلى طائفتين . . وهذا يدل أبلغ دلالة على أن مجتمع نيسابور قد عرف مسألة اللفظ قبل قدوم البخاري إليهم، ولهم فيها مواقف، لذا اختلفوا قبل وصول الخبر للامام الذهلي، وهذا يشير إلى تفاعل المجتمع وبالذات طلبة العلم المتحمسين للقضية قبل الإمام الذهلي .

أما رواية أبي حامد الأعشى : ففيها أيضاً تقديره للبخارى وعلمه وسلامة الصدر عليه لذا نراه يسأله أمام الناس عن الأسامي والكنى والعلل، ولو كان لديه بوادر حسد أو عداء لما بقي يسأله أمام الجموع وهو إمامهم والبخاري يصغره بنحو إثنتين وعشرين سنة، حتى بعد شهر، وصلته الأنباء من بغداد أن البخاري قد تكلم باللفظ، وهنا نتعرف على شخصية الذهلي الشديدة، فليس لديه استعداد لتفهم رؤية البخاري للمسألة، بل اعتبره مخالفاً لأحمد الذى نهى عن القول فيها . . . لذا نهى طلبته عن الاقتراب منه والأخذ عنه .

أما الرواية الثالثة : وهى ذكر الامتحان، فقد سبق الكلام عليها بما يغنى عن الإعادة . . . . إن التعرض لمثل هذه القضايا والكتابه فيها، وخاصة في هذه الأعصار المتأخرة، يحتاج إلى توق وتريث، ونظرة فاحصة ومتأملة في أحوال تلك العهود وأهلها الذين تفصل بيننا وبينهم آماد زمنية طويلة .

وبعبارة أخرى ليتصور المرء أنه أحد أفراد الناس في تلك العهود، أى ينقل فكره من القرن الرابع بعد الألف - إلى القرن الثالث الهجرى ثم ليتأمل :

١- التكوين العام للمجتمعات، فبينما نجد الجهمية والمعتزلة وسواهم من أصحاب الفرق الأخرى يثيرون البلبلة، نجد أن أهل السنة قد افترقوا كما نص ابن قتيبة سابقاً إلى طوائف في هذه المسألة بالأخص. فليؤخذ هذا في الاعتبار.

٢- تفاعل تلك المجتمعات مع قضاياهم السياسية والدينية سواء في بغداد أو نيسابور حاضرتي العلم أو سواهما من المدن القريبة، وهذا التفاعل شارك فيه العلماء وطلبة العلم، والعامة، فللعلماء نظرتهم بحسب ما تجمع لديهم من أدلة وفهم للمسألة، ولطلبة العلم أثر في متابعتهم العلماء وحماسهم، وللعامة أثر بسبب التعصب لطائفة ما مع كثرة القيل والقال. فليؤخذ هذا أيضاً في الاعتبار.

ولم يكن الأمر كما تصور بعض الكتاب المتأخرين أن الخلاف نشأ لتوه بين الذهلي والبخاري متكئين على ما قرره البخاري في آخر عهده بالذهلي أنه كم يعتريه الحسد في العلم- فنسوا الحيثيات والاعتبارات- التي لابد من الوقوف عندها إن أردنا معرفة أقرب الصور والحقائق لتلك الأحداث - وبنوا على مسألة الحسد هذه كل تحليلاتهم واستنباطاتهم استنتاجاً من ذات النصوص التي أشرنا إليها.

ومن هؤلاء الكتاب: صاحب كتاب «الامام البخاري محدثاً وفقيهاً»[1] والذي ذهب يقرر في تلك الأحداث قضايا لا نوافقه عليها ومن ضمن ما ذهب إليه قوله في ص ٧٠: «وقد استغل محمد بن يحيى الذهلي كراهية النفوس لمن يتكلم في القرآن، فأراد أن يوقع البخاري في هذا الأمر حتى ينفر الناس عن مجلسه وينسبوه إلى الاعتزال» فوصف الامام الذهلي باستغلال المشاعر ليوقع بالامام البخاري في دائرة الاعتزال أمر يتجافى عنه قلم الباحث، خاصة وأن الإجماع قائم على عدالة الإمام الذهلي، ورحم الله أسلافنا حين ترجموا

(١) هو الأستاذ الدكتور الحسيني عبدالمجيد هاشم.

لأسلافهم فأنصفوهم مهما كان بينهم من خلاف، ولم يحشروا أنفسهم فيما جرى بينهم مفسرين معللين للأحداث كحال الذى يعايشها لحظة لحظة، ويرقب لمحات وتعبيرات وجوه أصحابها، ومخارج كلامهم، والحالة النفسية أثناء كل ذلك .

وفي ص ٧٣ يقول : « نجد أن البخاري في محنته هذه لم يقترف إثماً وان ما أثير حوله إنما هو وليد الحسد من النفوس البشرية ومحمد بن يحيى رحب بالبخاري عند قدومه، ولكن الشيطان للانسان عدو مبين فحسده عندما رأى انه احتل مكان الصدارة والتف حوله القوم وتركوا الذهلي فاستغل إثارة النفوس وحساسيتها بالنسبة لفتنة القرآن، وتابعه على ذلك الذين انتقدهم البخاري وجرحهم بالتضعيف واستعملوا التشويش على العامة . . . . » الخ .

ويقول في ص ٧٥ بعد سياقه خبر البخاري مع خالد بن أحمد الذهلي أمير بخارى وما حصل بينهما من خلاف بسبب رد البخاري الشديد عليه وامتناعه عن الحضور لديه لإلقاء دروس خاصة لأبنائه من الجامع والتاريخ .

يقول : « . . . فأسَرَّ الأمير في نفسه العداوة للبخاري، وصار يتحين الفرص حتى وصله كتاب محمد بن يحيى الذهلي الذى لم يكتف بصرف الناس عن البخاري في نيسابور فلم يقنع برحيله منها رغبة في تسكين الفتنة، فواصل عداءه للبخارى بكتاباته للولاة والعلماء بالتشنيع على البخاري بمسألة اللفظ ورميه بالاعتزال جزافاً وبهتاناً . . . . الخ كلامه » .

ومن حقنا أن نتساءل : في أي المواضع ورد ما يدل على أن الذهلي رمى الإمام البخاري بالاعتزال تصريحاً أو تلميحاً ؟! إن إطلاق العبارات بهذه الصورة يجعل الأمر في غاية التعقيد فإذا كان - وهذا على سبيل الافتراض - الإمام الذهلي قد رمى الامام البخاري بالاعتزال فإما أن يكون مصيباً أو مخطئاً في دعواه، فإذا كانت الأولى، فإنه ينبني عليها قضايا أشد تعقيداً ، وهي كيف يمكن

للأمة أن تتقبل صحيحه الجامع وتعمل بما فيه من أحاديث تحرّى انتقاءها وهو معتزلي، وإذا كانت الثانية، فإنه يجب أن يعاد النظر في مرويات الإمام الذهلي الموجودة في الكتب الستة إلا مسلماً، وفي مصنفات غيرها كثيرة جداً . لأن رميه للبخاري بالاعتزال - وهو ليس كذلك - معناه تنحية الذهلي من قائمة أئمة الجرح والتعديل لانتقاض أكثر شروط المعدل والجارح فيه[1]، لأنه جرحَ عَلَماً أجمع العلماء قاطبة على عدالته وثقته- وكان جرحه شاذاً غير متنزل على المجروح .

ومن هذه الشروط أن يكون مجانباً للعصبية والهوى، وأن يكون عدلاً في نفسه متقناً - فإن افترضنا أن الذهلي كان صاحب عصبية وهوى رمى جزافاً وبهتاناً بالاعتزال فمعنى ذلك أنه ليس عدلاً ولا ورعاً - وعلى هذا فيكون البخاري متهماً في صحيحه أنه يخرج في الأصول لغير العدول . . . . وهذا ما أثبت ابن حجر خلافه وأطبق الجمهور على خلافه كذلك .

قال ابن حجر : « إن تخريج صاحب الصحيح لأي راوٍ كان مقتض لعدالته عنده، وصحة ضبطه، وعدم غفلته، ولا سيما ما انضاف إلى ذلك من اطباق جمهور الأئمة على تسمية الكتابين بالصحيحين، فهو بمثابة اطباق الجمهور على تعديل من ذكر فيهما، هذا إذا خرج له في الأصول » [2].

ومن المؤلفين الذين استنبطوا من النصوص ما لا أراه متنزلاً على مراميها صاحب كتاب « الإمام البخاري وصحيحه »[3] قال : - « وممن امتحن بسبب تلك المسألة أخطر محنة، ورمي بالكفروالبدعة - والمؤمن مبتلى - أبو عبدالله البخاري رضى الله عنه . فقد حسده بعض محدثي وفقهاء عصره، يرأسهم

---

(١) وهي الشرط الأول والثاني والثالث والخامس والسابع من الشروط التي نص عليها الحافظ ابن ناصر الدين الدمشقي في الرد الوافر انظرها جميعاً في ٤٣٦ من الفصل الأول في الباب الثالث عند مطلب الجرح والتعديل .

(٢) هدي الساري ٣٨٤.

(٣) هو الدكتور عبدالغني عبدالخالق.

شيخه محمد بن يحيى الذهلي، وانتهزوا فرصة قوله بحدوث لفظ القرآن بصرف النظر عن معناه ومدلوله، فرموه بالاعتزال وكفروه، وشنعوا عليه وطردوه»[1]. وكأنه عفا الله عنه قد تابع ابن السيد البطليوسي الذى أثنى على البخاري ومسلم وابن معين في انتقادهم للحديث وتحريره، فقال: - «وللبخاري رحمه الله - في هذا الباب عناء مشكور وسعي مبرور، وكذلك لمسلم وابن معين، فإنهم انتقدوا الحديث وحرروه، ونبهوا على ضعفاء المحدثين والمتهمين بالكذب حتى ضج من ذلك من كان في عصرهم، وكان ذلك أحد الأسباب التى أوغرت صدور الفقهاء على البخاري، فلم يزالوا يرصدون له المكاره حتى أمكنتهم فيه فرصة بكلمة قالها فكفرّوه، وامتحنوه وطردوه الخ[2] وابن السيد البطليوسي لم يصرح باسم الذهلي «فإن كان يقصد بأولئك فقهاء بخارى الذين لقى منهم البخاري البلاء الشديد مع أميرها خالد الذهلي حتى دعا عليهم جميعاً فاستجاب الله دعاءه فأصابتهم الكُرَب والبلايا بعد شهر من دعائه»[3].

أقول: إن كان يقصد أولئك فلا بأس لأن عداءهم ليس له مبرر سوى الهوى والحسد، كما أنهم ليسوا مشهورين بالعلم. أما إن كان يقصد الإمام الذهلي وأبا حاتم وأبا زرعة الرازيين - فلا يسلم له ذلك بحال من الأحوال، والجواب عليه من كلامه، فانه ذكر تقدم ابن معين والبخاري ومسلم في الصناعة الحديثية، ولو أنه راجع حالهم هُمْ مع الذهلي واعترافاتهم بفضله لما سطرّماسطره فهذا ابن معين يُسأل: «لم لا تجمع حديث الزهرى؟ فيقول بلسانه: كفانا محمد ابن يحيى ذلك»[4] وهذا البخاري لا يستغني عن مرويات الذهلي وهو الذي تمتد

(١) ص ١٦٤.

(٢) التنبيه على الأسباب التي أوجبت الاختلاف بين المسلمين في آرائهم ومذاهبهم واعتقاداتهم ص١٧٣ - تحقيق وتعليق الدكتور أحمد حسن كحيل، والدكتور حمزة عبدالله النشرتي.

(٣) انظر ص ٣٨٧ - ٣٨٨ من هذا الفصل.

(٤) سير أعلام النبلاء ١٢/ ٢٨٠ في ترجمة الذهلي، وتخصص الإمام الذهلي في جمع الزهريات وبيان عللها لايحتاج لمزيد بيان على ماذكر في أول الرسالة.

إليه ألسنة المتأخرين بالتهم !! فياليت شعري إخراج البخاري له في أصل كتابه مامعناه؟!

أما مسلم رحمه اللّه فمعلوم أنه لم يترك الرواية والاستفادة من شيخه الذهلي وعلمه بالحديث وعلله حتى بعد نشوب مسألة اللفظ، وعندما وصل النبأ إلى الذهلي أن مسلماً على مذهب البخاري، نادى في نهاية مجلسه: ألا من قال باللفظ فلا يحل له أن يحضر مجلسنا، فأخذ مسلم الرداء فوق عمامته، وقام على رؤوس الناس وخرج من مجلسه وجمع كل ماكان كتب منه وبعث به على ظهر حَمَّالْ إلى باب محمد بن يحيى[1] وكان هذا في آخر عمريهما. . . . وعلى هذا فمسلم كان حتى في شيخوخته يتتلمذ على الذهلي رحمهما اللّه، وقد أنحى أبو زرعة باللائمة على مسلم لما ترك الذهلي فقال عنه: هذا ليس له عقل، لو داری محمد بن يحيى، لصار رجلاً.[2]

وأما أبو زرعة وأبو حاتم الرازيان فعلمهما بالرجال والحديث وعلله معلوم لكل طالب علم وكتبهما في ذلك بين أيدينا !!

فإن كان البطليوسي يقصد بكلامه الذهلي فقد سبق بيان أحوال ابن معين والبخاري ومسلم معه من اعتراف بتقدمه والرواية عنه وغير ذلك، وإن كان لايقصد الذهلي، فقد بطل اعتماد الدكتور عبد الغني على كلامه.

وثالثة الأثافي وهي ادعاؤهما تكفير الذهلي للبخاري، ولاأزيد في هذا المقام على المطالبة بنص فيه التصريح بذلك . . . . أما اعتساف معاني النصوص لتؤيد استنباطات بعيده فهذا يرد عليه الأئمة ابن تيمية والذهبي والسبكي بعد صفحات.[3]

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ١١/ ٣٤ وسيأتي عرض تلك الأحداث في ص ٣٨١.

(٢) السير ١٢/ ٢٨١.

(٣) انظر ص ٣٧٤ - ٣٧٩ وفيها تكفير الذهلي للقائلين بخلق القرآن وكذلك الواقفين، وتبديعه للبخاري وذلك في رواية أبي حامد ابن الشرقي. وفي رواية المخلدي قوله: " أن البخاري أظهر قول اللفظية " واللفظية شر من الجهمية " فهذا لايشم منه تكفير بدلالة إطلاق الإمام أحمد لنفس المقولة على الكرابيسي ولايريد بها تكفيره كما حرره ابن تيمية فلينظر.

ويستشهد الدكتور بكلام القاسمي نقلاًمن كتابه « حياة البخاري » وفيه يعلق على قول الذهلي لأهل نيسابور : لاتسألوه عن شيء من علم الكلام . . . يقول : « إن نهي الذهلي عن سؤال البخاري عن شيء من الكلام ، فيه تلقين للفتنة، وتعليم لمثارها، وفتح لبابها »[1]

وقد سبق توجيه كلام الذهلي هذا رحمه الله استنتاجاً من النظر العام لتلك الأحداث والأحوال الاجتماعية آنذاك ، أما توجيه القاسمي هذا فإني لاأوافقه عليه لأن الذهلي نفسه قد حآج عن نفسه وعلل نهيه فقال : . . . . فإنه إن أجاب بخلاف مانحن فيه، وقع بيننا وبينه، ثم شمت بنا كل حروري وكل رافضي، وكل جهمي، وكل مرجيء بخراسان ».

وقبولنا لتعليل صاحب الكلام قبل عشرة قرون أولى بكثير من قبول محلل للنص بعد هذه القرون والآماد الطويلة.

وحتى لايطول بنا المقام في تتبع أقوال المؤلفين والكتاب المتأخرين، فهذه كلمة- أرجو بها السلامة والعافية عند الله لي ولهم ولكل من يجرد قلمه لتناول قضايا كانت محل خلاف بين علمائنا من السلف الصالح رحمهم الله - وقد أفضوا إلى ماقدموا- كالإمامين في هذه المسألة.

ينبغي **أولاً**: وقبل أي قول أن نكون أكثر أدباً وأشد احتراماً من سلفنا الصالح حين تعرضوا لمثل هذه المسائل بين سلفهم الماضين، وأن نسلك ذات الخط الذي سلكوه حتى لانأتي ببدع من القول والاستنباط والتحليل.

وثانياً : يجب أن لاننسى أن الإمامين من كبار أئمة السنة في زمانهما، وهنا يكون التريث والتوقي أكثر وأشد.

وثالثاً : تكون عمدتنا في الحديث عنهم أقوالهم قبل أقوال غيرهم، بعد النظر في أسانيدها، وألا نكذبهم فنترك تعليلاتهم وتحليلاتهم لمواقفهم ونرمي بها

---

(١) انظر الإمام البخاري وصحيحه ص ١٦٦.

عرض الحائط، ونأتي نستنتج ونوجه كأننا نسمعهم ونراهم، ونقيسهم على رجال هذا الزمان وتصرفاتهم. كما يجب ألا نزيد على ماقالوه ونحمل كلامهم مالايحتمله.

إن خلاصة ما وقفت عليه من أقوال للإمام الذهلي في حق الإمام البخاري . . . . . « أنه يبدعه ويأمر بهجره، وعدم مكالمته »[1].

وانظر قمة التفهم للمسألة والتحليل عند الإمام السبكي[2]، وفي ثنايا كلامه حسن الظن بالذهلي واستبعاده أن يرمي البخاري بشيء من أقوال المعتزلة، وتحليله لذلك التبديع وتلك المقاطعة أنه ليس محض مخالفة ومنافرة، وإنما متابعة للإمام أحمد بن حنبل في النهي عن الخوض في علم الكلام. وفي نهاية كلامه يقول: « والحاصل ماقدمناه من أن أحمد بن حنبل، وغيره من السادات الموفقين، نهوا عن الكلام في القرآن جملة، وإن لم يخالفوا في مسألة اللفظ، فيما نظن فيهم، اجلالاً لهم، وفهماً من كلامهم من غير رواية، ورفعاً لمحلهم عن قول لايشهد له معقول ولامنقول. . . ».

وهذه نصيحة غالية ودرة ثمينة أهداها السبكي لكل من يتصدى للقضايا التي كانت محل خلاف بين أعلام سلف هذه الأمة . . . . قال: « وينبغي لك أيها المسترشد أن تسلك سبيل الأدب مع الأئمة الماضين، وأن لا تنظر إلى كلام بعضهم في بعض إلا إذا أتى ببرهان واضح، ثم إن قدرت على التأويل وتحسين الظن فدونك، وإلا فاضرب صفحاً عما جرى بينهم، فإنك لم تخلق لهذا، فاشتغل بما يعنيك، ودع مالايعنيك، ولايزال طالب العلم عندى نبيلاً حتى يخوض فيما جرى بين السلف الماضين ويقضي لبعضهم على بعض . . . . الخ »[3].

---

(١) انظر صريح كلامه في ذلك ص ٢٥١ وهي رواية أبي حامد الأعشى.

(٢) ص ٢٧٢، ص ٢٧٣.

(٣) طبقات الشافعية الكبرى ٢/ ٢٧٨.

وهذا الخط الذي نبه إليه الإمام السبكي في طبقاته هو مثال لما فعله وقاله ونادى به الأئمة ابن تيمية في مواضع كثيرة من فتاواه ودرء التعارض وغيرها من كتبه، والحافظ الذهبي في سيره وتذكرته ، عندما تناولوا هذه الوحشة بين الإمامين الجليلين بالحديث، فكانت عباراتهم مسددة، وألفاظهم يكسوها التوقير والتواضع والإحترام لأعلام الأمة وهم يختلفون.

وإذا علمنا أخيراً أن الإمام البخاري وهو صاحب القضية وأولى محلل لها ، قد روى عن شيخه وقرينه الذهلي أربعة وثلاثين حديثاً في صحيحه، ففي هذا أبلغ دلالة على أن الأمر لم يكن بمستوى مافهمه وقرره وحلله بعض الباحثين والكُتَّاب.

ومع تعاطفي كباحث درس القضية، وعايشها ردحاً من الزمن - مع الإمامين رحمهما الله - فإنني أرى أن أقل ماينبغي أن نقوم به نحن المسلمين في مثل هذا المقام، نصحاً للّه ورسوله وللدين وللمسلمين، أن نعرض كل ملابسات الأحداث ونوجهها بقدر المستطاع.

ومن هذا التوجيهات أن الإمام الذهلي كان من منهجه الدعوي مراسلة العلماء بما يستنكره في نيسابور من مخالفات عقدية، قبل مجيء البخاري بسنين، ومثال ذلك: «مراسلته الإمام أحمد بن حنبل في شأن داود الأصبهاني لما أن قال بحدوث القرآن . . . . وتصديق الإمام له ومقاطعته لداود وعدم مكالمته ومقابلته»[1]. فكونه يستنكر على الإمام البخاري موقفه وعدم متابعته للإمام أحمد المتابعة النصيَّة مع اعتقاده أنه في استنكاره على الصواب- لاغضاضة فيه خاصة في ذلك الزمان، وتلك الفترة التي كثرت فيها الأقوال المتضاربة في تلك القضية، ومكانته في خراسان توجب عليه الاهتمام بقضايا المسلمين وحمايتها من كل مايطرأ عليها.

ويجب ألا يفوتنا أن نظرة الإمام الذهلي للإمام البخاري ، غير نظرتنا نحن له في هذا الزمن، فحين نراه بعين الإكبار والتبجيل والتقدم في علم الحديث وأنه

(١) السير ١٣/١٠٣.

صاحب الجامع الصحيح- أصح كتاب بعد كتاب الله - فطبعي أن ينظر إليه الذهلي على أنه قرين سبق وأن تتلمذ عليه وروى عنه كغيره من طلبة العلم وله سَبْقٌ وتميز، ولما طرأ ماطرأ تغير الموقف. (والمعاصرة حجاب) وعليه فإن القاعدة التي يقف عليها الذهلي، غير قواعد المتأخرين حين يتصدّون للقضية.

وانطلاقاً من هذه المعاني فإني ألتمس للإمام الذهلي الأعذار، بعد اعترافي التام ببراءة ساحة الإمام البخاري، ودقة مذهبه الذي سبب للإمام الذهلي سوء فهمه، بجانب فهمه الصحيح رحمه الله لمذاهب القائلين « اللفظ بالقرآن مخلوق » ومتابعة الإمام أحمد في منع إطلاق ذلك.

وهذا تفصيل هذه الأعذار:

أولاً: أن الإمام البخاري لما سئل عن اللفظ بالقرآن، توقف واحتج بأن أفعالنا مخلوقة، واستدل لذلك، ففهم منه الذهلي أنه يوجه مسألة اللفظ، فتكلم فيه، وأخذه بلازم قوله هو وغيره.(١)

ولازم قول البخاري رحمه الله «هو أن ألفاظنا من أفعالنا ومادامت الأفعال مخلوقة فالألفاظ مخلوقة وعليه فلفظي بالقرآن مخلوق».

ولكن البخاري رحمه الله لم يصرح بهذا اللازم ولم يقل «لفظي بالقرآن مخلوق».

قال الذهبي رحمه الله « تأمل كلامه، ما أذكاه! ومعناه والعلم عند الله - أني لم أقل لفظي بالقرآن مخلوق، لأن الكلام في هذا خوض في مسائل الكلام، وصفات الله لاينبغي الخوض فيها الا للضرورة، ولكني قلت: أفعال العباد مخلوقة وهي قاعدة مغنية عن تخصيص هذه المسألة بالذكر، فإن كل عاقل يعلم أن لفظنا من جملة أفعالنا، وأفعالنا مخلوقة، فألفاظنا مخلوقة»(٢).

---

(١) السير ١٢/ ٤٥٧.

(٢) طبقات الشافعية الكبرى ٢/ ٢٣٠.

أقول . . . . ولشدة متابعة الذهلي لأحمد ومنعه الخوض أو التلويح بشيء من علم الكلام . . ظن أن هذا التلويح من البخاري طريق للتصريح وزاد من هذا الظن ما وصله من بغداد أنه يتكلم في اللفظ كما في رواية الأعشى السابقة .

ومما يدلنا أن مقصد الذهلي هو عدم الخوض في شيء من اللفظ وأن أقل كلام فيه فهو خوض في الكلام مانقله تلميذه أبو حامد ابن الشرقي قال سمعت محمد بن يحيى الذهلي يقول : « القرآن كلام اللّه غير مخلوق من جميع جهاته ، وحيث تُصُرِّف فمن لزم هذا استغنى عن اللفظ وعما سواه»(١) .

أضف إلى ذلك ما استقر عند الناس عنه- أى البخاري-أنه قال : «لفظي بالقرآن مخلوق» كمافهموا من أقواله . . . قال له أبو عمرو الخفّاف : إن الناس قد خاضوا في قولك : «لفظي بالقرآن مخلوق»(٢) . . . . . وهكذا ساغ للذهلي مخالفة البخاري لما استقر في المجتمع عن البخاري ولما استقر عند الذهلي من فهم للمسألة .

ثانياً : من الأعذار ما تفيده هذه الرواية المضطربة عن البخاري التي يخالف آخرُها أولَها . قال محمد بن يوسف الفربرى : سمعت محمد بن إسماعيل يقول : أما أفعال العباد فمخلوقة ، فقد حدثنا علي بن عبداللّه ، حدثنا مروان بن معاوية ، حدثنا أبومالك عن ربعي عن حذيفة قال : قال النبي صلى اللّه عليه وسلم : «أن اللّه يصنع كل صانع وصنعته» وسمعت عبيداللّه بن سعيد : سمعت يحيى بن سعيد يقول : مازلت أسمع أصحابنا يقولون : إن أفعال العباد مخلوقة .

---

(١) السير ١٢/ ٤٥٦ ، تاريخ بغداد ٢/ ٣١ ، ٣٢ .

(٢) طبقات الشافعية الكبرى ٢/ ٢٣٠ .

قال البخاري : حركاتهم وأصواتهم واكتسابهم وكتابتهم مخلوقة، فأما القرآن المتلو المثبت في الصحف المسطور المكتوب الموعى في القلوب، فهو كلام اللّه غير مخلوق، قال تعالى : ﴿ **بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم** ﴾[1] وقال : يقال : فلان حسن القراءة ورديء القراءة ولايقال حسن القرآن ولارديء القرآن، وإنما ينسب إلى العباد القراءة لأن القرآن كلام الرب، والقراءة فعل العبد، وليس لأحد أن يشرع في أمر اللّه بغير علم، كما زعم بعضهم أن القرآن بألفاظنا وألفاظنا به شيء واحد، والتلاوة هي المتلو، والقراءة هي المقروء.

فقيل له[2] : إن التلاوة فعل القارىء وعمل التالي . . . . فرجع، وقال : ظننتهما مصدرين! فقيل له : هلاّ أمسكت كما أمسك كثير من أصحابك، ولو بعثت إلى من كتب عنك واستردت ماأثبته وضربت عليه. فزعم أن كيف يمكن هذا، وقال : قلت، ومضى. فقلت له : كيف جاز لك أن تقول في اللّه شيئاً لاتقوم به شرحاً وبياناً، وإذا لم تميز بين التلاوة والمتلو؟!! فسكت، إذ لم يكن عنده جواب "[3].

قلت : في النفس من هذه الرواية شيء وخاصة من بدايةالحوار، وموقف البخاري فيها لايحسد عليه، ولايليق بعالم كبير مثله، وقد أثر عنه أقوال كثيرة تدل على ثباته على أن أفعال العباد مخلوقة . . . . ومع رفعنا لمقام البخاري عن مثل هذا التناقض، الا أن ورود هذه الرواية عنه ولو كذباً عليه أمر محتمل،

---

(١) سورة العنكبوت آيه ٤٩ .

(٢) من هنا يبدأ الاضطراب في باقي الرواية .

(٣) طبقات الشافعية الكبرى٢/ ٢٢٨، والشطر الأول من الرواية قبل الاضطراب موجود في " خلق أفعال العباد " للإمام البخاري باعتناء بدر البدر ، باب " أفعال العباد " ص ٤١، وذكره الخطيب البغدادي في تاريخه ٢/ ٣١، وكذا الإمام البيهقي في كتاب الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد، دراسة وتحقيق الدكتور السيد الجميلي ص ٨٦، وكذلك الأسماء والصفات ص٢٦٠ .

وكذلك وصول هذه الرواية إلى الذهلي أكثر إحتمالا، وعامل الكذب وانتشاره[1] لابد من وضعه في الاعتبار. وإذا علمنا أن أهل خراسان قد أعاروا مسألة اللفظ إهتماماً بالغاً، ولم يكونوا عالمين بمرامي كلام أحمد والبخاري كأهل العراق، فإننا ندرك أن وجهات النظر في المسألة بدأت في التباعد، وثمة أمر آخر له أهميته القصوى في التأثير على مجريات الأحداث وهو« طبيعة بيئتي العراق وخراسان، فالأولى وهي حاضرة الخلافة وكعبة العلم ويقصدها العلماء والحكماء والساسة من أهل النظر والفكر في كل ميدان وانتشار حلق العلم فيها أكثر من غيرها. كل ذلك أكسبها خاصية المرونة والتحضر، ونيسابور حاضرة المشرق لم تكن أقل حظاً في كل ذلك من بغداد، ولكن ما من شك أن طبيعتها الجبلية قد أثرت في أهلها مما جعل مواقفهم تتسم بالقوة والتعصب، والمتابعة غير المتأنية لأحمد بخلاف متابعة أهل بغداد، وقد ألمح شيخ الإسلام ابن تيمية إلى بعض هذه المعاني فقال: «ولكن أهل خراسان لم يكن لهم من العلم بأقوال أحمد مالأهل العراق الذين هم أخص به- ويقصد بهم المتابعين له، العارفين بأقواله مثل أبي بكر المروذي وأبي بكر الخلال اللذين جمعا علمه- وأعظم ماوقعت فتنة اللفظ بخراسان، وتُعُصب فيها على البخاري - مع جلالته وإمامته- وإن كان

(١) يشير ابن تيمية إلى ذلك فيقول: وقد رأيت طائفةً تنتسب إلى السنة والحديث، كأبي نصر السجزي وأمثاله ممن يردون على أبي عبداللّه البخاري، ويقول: إن أحمد بن حنبل كان يقول لفظي بالقرآن غير مخلوق، وذكروا روايات كاذبة لاريب فيها، . . . الخ مجموع الفتاوى ٧/ ٦٥٩، ومما أوقع الذهلي في مخالفة البخاري ما افتراه بعض الناس ونقلوه من أنه قال "لفظي بالقرآن مخلوق" صرح بذلك ابن تيمية في مجموع الفتاوى ١٢/ ٣٦٤. ومما يدل على اتخاذ الناس الكذب مطية لأي عارض هذه الرواية المكشوفة قال ابن تيمية« . . . وجرت للبخاري محنة بسبب ذلك حتى زعم بعض الكذابين أن البخاري لما مات أمر أحمد بن حنبل أن لا يصلى عليه، وهذا كذب ظاهر، فإن أبا عبداللّه البخاري - رحمه اللّه - مات بعد أحمد بن حنبل بنحو خمس عشرة سنة . . . الخ» امجموع لفتاوى ١٢/ ٢٥٨.

الذين قاموا عليه أيضاً أئمة أجلاء، فالبخاري- رضى اللّه عنه- من أجل الناس». [1] وعبارته«وقد تعصب فيها على البخاري» تشير في غير مالبس إلى أن القضية فهمت بميزانين مختلفين[2].

وقد بين الإمام ابن تيمية أن تصنيف الناس في تلك السنين قد أخذ مدىً بعيداً، ولم يسلم منه أكابر العلماء فضلاً عن غيرهم. . . والبخاري ممن صنف مع اللفظية، مع الكرابيسي، ونعيم بن حماد، والبويطي، والحارث المحاسبي [3] وكذلك قال مع طائفة من أهل العلم والسنة مثل محمد بن نصر المروزي: «أن الإيمان مخلوق، ومرادهم أفعال العباد وليس صفات اللّه» [4].

---

(١) مجموع الفتاوى ١٢/ ٢٠٨

(٢) ومن الملابسات التي قد يكون لها أثر في توجيه الأحداث ما يتناقله بعض الناس ويروجونه من أن الإمام البخاري ممن يقول « أن الموجود في القرآن حكاية عن كلام اللّه» - انظر معنى ذلك ص٣٣٩ طائفة (ط) ومن ذلك ما ذكره أبو اليمن العليمي في المنهج الأحمد قال: « قال إبراهيم بن محمد : أنا توليت دفن محمد بن إسماعيل لما أن مات بخرْتنك أردت حمله إلى مدينة سمرقند لعلي أدفنه بها فلم يتركني صاحب لنا، فدفناه بها فلما أن فرغنا ورجعت إلى منزلي الذي كنت فيه قال لي صاحب القصر: سألته أمس قلت له : يا أبا عبد اللّه ما تقول في القرآن؟ فقال القرآن كلام اللّه غير مخلوق، قال : فقلت : إن الناس يزعمون أنك تقول : ليس في المصاحف قرآن، ولافي صدور الناس قرآن، فقال استغفر اللّه أنْ تشهد علّى بشيء لم تسمعه مني، أقول لك كما قال اللّه تعالى ﴿والطور وكتاب مسطور﴾ سورة الطور آية (١ , ٢) وأقول : في المصاحف قرآن، وفي صدور الناس قرآن، فمن قال غير هذا يستتاب، فإن تاب وإلا فسبيله سبيل الكفر » أ.هـ. المنهج الأحمد في تراجم أصحاب الإمام أحمد ١/ ٢٠٧ فهذه الرواية المأخذ فيها كلام صاحب القصر، وعلى فرض ثبوته فهو محمول على قوله بالحكاية بمعنى البلاغ عن اللّه عز وجل، فإذا برأنا ساحة البخاري من هذه التهمة بأن صاحب القصر رجل مبهم غير معروف، وثانياً بكلامه الواضح الصريح الذي لا يدع مجالاً لطاعن. . . . فهذا من حيث حكمنا على الرواية. . . . . ولكن مدلول الرواية العام يدل على أن هناك ما يتناقله الناس عنه في هذا المضمار .

(٣) مجموع الفتاوى١٢/ ٢٠٦ .

(٤) مجموع الفتاوى ٧/ ٦٥٨ .

وقرَّرَ ابن تيمية مراراً وتكراراً أن النزاع في تلك المسائل بسبب الألفاظ المجملة والمعاني المتشابهة [1] والقول أيضاً عن القرآن«أنه حكاية عن كلام اللّه» مجمل مشتبه فيه حق وباطل، واطلاقة هكذا يورث سوء الفهم، ومن أراد المعنى الباطل تذرع به إلى أن اللّه لايتكلم بحرف وصوت يسمع، وهذا الذي أنكره السلف ومنهم الإمام الذهلي [2].

أما الإمام البخاري فقد نفى في الرواية السابقة كل ذلك عن نفسه وهو الصادق البار رحمه اللّه، ولكن مثل هذه الأمور تنسب إليه لأنه لم يكتف بحياد الإمام أحمد، - بل رأى- وذلك يعود لنظرته للأحداث والمجتمع ووجوب البيان- أن يلوِّح بالقول الحق كما في قوله في اللفظ، وأن يصرح كما في قوله بخلق الإيمان، ومقصوده في ذلك صحيح لاكما يريد المتذرعون بنفس القول إلى المعاني الجهمية مثل الكرابيسي، أو المخالفة لمنهج السلف مثل ابن كُلاَّب أوَل من أحدث في الإسلام القول بأن ما في المصاحف حكاية عن كلام اللّه وأبي الحسن الأشعري قبل توبته الذي سلك مسلك ابن كلاب في اثبات أكثر الصفات واستدرك عليه بأن يخالف المعتزلة في قوله« حكاية» واستبداله« بالعبارة» فأنكر عليه أهل السنة والجماعة[3] ومنهم الحارث المحاسبي الذين حذر الإمام أحمد من

(١) من هذه المواضع مجموع الفتاوى ٧/ ٦٥٨ .

(٢) قال ابن تيمية : « وكذلك من يقول : أن هذا القرآن ليس هو كلام اللّه، وإنما هو حكاية عنه، أو عبارة عنه، أو أنه ليس في المصحف والصدور إلا كما أن اللّه ورسوله في المصاحف والصدور، ونحو ذلك وهذا محفوظ " أي ذمه وإنكاره وتضليل قائله " عن الإمام أحمد وإسحاق وأبي عبيد، وأبي مصعب الزهري، وأبي ثور، وأبي الوليد الجارودي، ومحمد بن بشار، ويعقوب بن إبراهيم الدورقي، ومحمد بن يحيى ابن أبي عمرو العدني، ومحمد بن يحيى الذهلي، ومحمد ابن أسلم الطوسي، وعدد لايحصيهم إلا اللّه من أئمة الإسلام وهداته » مجموع الفتاوى ١٢/ ٤٢١، وانظر كذلك لوامع الأنوار للسفاريني ١/ ١٣٩، وكلام أبي الوفاء ابن عقيل بعد رجوعه عن الكلام وكيف أثبت أن القائلين بهذا جاؤوا بقول المعتزلة في صورة أخرى بقولهم « العبارة والحكاية » وأن القرآن الذي هو كلام اللّه قائم في نفس الحق غير ظاهر في إحساس الخلق . مختصر الصواعق المرسلة ص٤٤٩، ٤٥٠ .

(٣) انظر في ذلك كلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى ١٢/ ٢٧٢ .

أقوالهم . . . بالرغم من قربهم من أهل السنة وإقرارهما بما يقرونه، هؤلاء ضُمَ إليهم البخاري لسوء فهم أقواله، ولاجتماعهم على البيان والبت في المسائل على اختلاف المشارب والمقاصد، فساغ للناس في كل مكان ألا يميزوا بين مناهج ومقاصد المتناولين لهذه المسائل المتداخلة. ولانتصور أن الخلاف بين عدد محدود من العلماء فحسب، بل شارك معظم المعاصرين منهم لتلك الأحداث وبالتالي زادت الطوائف والأتباع، ووجد المبطلون بغيتهم فسعروا نيران الفتنة واختلط الحابل بالنابل وانعدم التمييز. لذا فإن من يتصور تلك الفتنة وموجانها بالناس لاشك أنه سيعذر الإمام الذهلي في مواقفه بناء على مايسمع ويرى. وإن كنا نأخذ عليه عدم التأكد والتثبت من البخاري مباشرة.

إن هذه الأمور إذا اجتمعت في ذهن الذهلي أو وصلت إلى مسمعيه لكثرة القيل والقال آنذاك . . على الإحتمال البعيد صار لدينا مايبرر مضايقته للبخاري. وبعد هذا يمكننا القول بأن الذهلي قد وجد في نفسه من الخلل الذي حدث في حلقته التي كانت قبلة العلماء وطلبة العلم بنيسابور . . .

بقية الأحداث :

لما وقع الاختلاف وتباينت المواقف بين الذهلي والبخاري. نادى عليه الذهلي ومنع الناس منه وانقطع عنه أكثر الناس غير الإمام مسلم لأنه كان على نفس مذهبه . . وكان هذا صلابةً وشدة من الذهلي في حق البخاري والتفسير الظاهري لهذا الفعل من الذهلي من وجهة نظره أن البخاري مبتدع يجب أن يهجر[1] . . ولكن البخاري رحمه اللّه تعالى كان موقناً من مذهبه وقوله في المسألة، فلم يجد تفسيراً لفعل الذهلي إلا أنه حسده على ماآتاه اللّه من العلم

(١) اتسم أهل خراسان بالصلابة في الدفاع عن السنة، ونفس هذا الموقف وقفه أبو عبد اللّه بن مندة وكان على مذهب الذهلي مع أبي نعيم الأصبهاني، راجع ترجمتهما في الميزان وغيره وانظر للعظائم التي بينهما كما ذكره الذهبي لبيان محدودية ما بين البخاري والذهلي بالنسبة لغيرهما .

والحظوة لدى طلبة العلم في جميع البلاد وما انتشر في الأصقاع عن ذكائه وحسن تصنيفه وصحته، والذهلي لم يكن أقل قدراً في العلم والتصنيف، فقد كانا طبقة واحدة من علماء الجرح والتعديل الأثبات الثقات وكلاهما طلب العلم على الآخر، وقد كانت للذهلي في نيسابور مهابة من نوع أحمد في بغداد ومالك في المدينة.

وعلى ضوء ماسبق فالبخاري والذهلي أقران فطاحلة في العلم، وأعلام مناضلة عن العقيدة، ومن كانت هذه صفاتهم جاز عليهم ماجاز على من سبقهم ولحقهم من العلماء الجهابذة من التغاير[1]. . . . والقاعدة المتبعة في عموم الأمة في مثل هذه الأحوال« أن لايعبأ بكلام أحدهم في الآخر. . . . من حيث التهم الموجهة لكل طرف. . مع الثناء عليهما والاقرار بفضلهما، وبيان وجه الحق فيما دار بينهما. . . . ».

والمصدر الأول لنسبة الحسد إلى الذهلي هو الإمام البخاري، ونحن لاننفيه، ثم تابعه بعض العلماء على ذلك[2]، والقوم لم نخالطهم رحمهم اللّه ولم نقف على دقائق أحوالهم، وهم أعلم بمراد بعضهم في بعض، واللّه يغفر لهم جميعاً..

---

(١) كما قال ابن عباس رضى اللّه عنهما: « استمعوا علم العلماء، ولا تصدقوا بعضهم في بعض، فوالذي نفسي بيده لهم أشد تغايراً من التيوس في زربها ». جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر، باب حكم قول العلماء بعضهم في بعض ٢/ ١٥١.

(٢) كبعض المعاصرين لهما. نقل الحاكم عن الحسن بن محمد بن جابر قال: سمعت محمد بن يحيى قال لنا لما ورد محمد بن إسماعيل البخاري نيسابور: إذهبوا إلى هذا الرجل الصالح فاسمعوا منه، فذهب الناس إليه، وأقبلوا على السماع منه، حتى ظهر الخلل في مجلس محمد ابن يحيى، فحسده بعد ذلك وتكلم فيه. السير ١٢/ ٤٥٣، تاريخ بغداد ٢/ ٣٠، وهؤلاء شهود عيان ولعلهم رأوا ما نقلوه بألسنتهم، ثم توالى العلماء كالسبكي وغيره وستأتي أقوالهم وتحليلاتهم.

وقد كان حال طلبة العلم انذاك حالاً عجيباً، فالبخاري والذهلي إمامان فاضلان عندهم فلما وقعت هذه الوحشة احتاروا . . . . . قال الحاكم: حدثنا طاهر بن محمد الوراق سمعت محمد بن شاذل يقول : لما وقع بين محمد ابن يحيى والبخاري، دخلت على البخاري فقلت : يا أبا عبد اللّه أيش الحيلة لنا فيما بينك وبين محمد بن يحيى، كل من يختلف إليك يطرد، فقال : كم يعتري محمد بن يحيى الحسد في العلم، والعلم رزق اللّه يعطيه من يشاء، فقلت : هذه المسألة التي تحكى عنك؟ قال: يا بني هذه مسألة مشئومة، رأيت أحمد بن حنبل، وما ناله في هذه المسألة، وجعلت على نفسي أن لا أتكلم فيها [1].

وأصبح اختلاف الإمامين هو شغل أهل نيسابور والداخلين إليها . . . ويظهر من أقوال من يذهب ويجيء بينهما من أهل العلم التألم من حالهما، ومحاولة الاستفهام عن حقيقة الوحشة دون التأثير على مشاعره وأحاسيسه « وهذا أمر وارد فالمؤمن المخلص تؤلمه وحشته مع إخوانه وإن كانوا هم المخطئين » روى غنجار في تاريخه قال : " حدثنا خلف بن محمد إسماعيل، سمعت أبا عمرو أحمد بن نصر: النيسابوري الخفاف يقول : كنا يوماً عند أبي إسحاق القيسي ومعنا محمد بن نصر المروزي فجرى ذكر محمد بن إسماعيل البخاري فقال محمد بن نصر: سمعته يقول : من زعم أني قلت لفظي بالقرآن مخلوق فهو كذاب، فإني لم أقله، فقلت له يا أبا عبد اللّه، قد خاض الناس في هذا وأكثروا فيه . فقال : ليس إلا ما أقول . قال أبو عمرو الخفاف، فأتيت البخاري، فناظرته في شيء من الأحاديث حتى طابت نفسه فقلت : يا أبا عبد اللّه ها هنا أحد يحكي عنك أنك قلت هذه المقالة، فقال : يا أبا عمرو احفظ ما أقول لك : من زعم من أهل نيسابور وقومس والري وهمذان وحلوان وبغداد والكوفة والبصرة ومكة والمدينة أني قلت لفظي بالقرآن مخلوق فهو كاذب، فإني لم أقله،

---

(١) السير ١٢/٤٥٦، وتاريخ الإسلام حوادث " ٢٥١ - ٢٦٠ " ص٢٦٨ .

إلا أني قلت أفعال العباد مخلوقة[1]. فقول محمد بن نصر المروزي رحمه اللّه للبخاري « قد خاض [2] الناس في هذا وأكثروا » دليل على شيوع المقالة وانتشارها عنه في تلك النواحي . وتعداد البخاري لهذه البلاد الكثيرة إقامة حجة منه وبراءة أنه لم يقل ذلك سواء شاع عندهم ذلك أو لم يشع .

ومع توالي الأيام تزداد الشقة والوحشة ويبين كل منهما مذهبه وما يراه، والطلبه ينقلون ذلك وهذا الذهلي يبين موقفه من كلام الناس في القرآن بما فيهم البخاري .

(١) السير ١٢/ ٤٥٧، ٤٥٨، تاريخ بغداد ٢/ ٣٢، طبقات السبكي ٢/ ٢٣٠، هدي الساري ٤٩١ .

(٢) يستفاد من هذه العبارة « خاض » بأنها مشعرة بأن الناس على مختلف مستوياتهم ما بين طلاب علم ومتعالمين وعلماء وعوام قد خاضوا ، وأخطر ما في هذا الأمر أن يصبح مادة في المجالس وفي المنتديات، وفي شتى أماكن تجمع الناس، تلوكها الألسنة وتضيف إليها الأفكار . فلابد أن الإمام الذهلي قد قذفت إليه أمواج هذه المعركة ذلك الركام الهائل من تلك الأقاويل التي أضيفت إلى مقولة الإمام البخاري، وبالتالي كان الإمام البخاري ينقل إليه صدى خوض الناس في هذه القصة وما زيد على كلامه، فكان يتألم غاية الألم ولايستطيع لذلك دفعاً ولعل عبارة الإمام المروزي : في النص الذي نقلناه عنه حيث يصف الإمام البخاري أنه يتألم . لأنه معروف أن العوام حينما يخوضون في قضية وتلوكها ألسنتهم فإنه من الصعب إلجامهم عند حد ما وإنما يأخذ الأمر مداه حتى تهدأ رياح ذلك الخوض العنيف، وغالباً ما يكون هناك ضحايا بالحق والباطل لمثل هذه الرياح ولعل انفعال الإمام البخاري في رده على الإمام المروزي ذلك الانفعال الشديد يمثل ما يجده الإمام البخاري في نفسه من الألم تجاه ما تتناقله الألسنة منسوباً إليه حيث قال رحمه اللّه يخاطب المروزي : " من زعم أني قلت لفظي بالقرآن مخلوق فهو كذاب، فإني لم أقله، فقال له المروزي: قد خاض الناس في هذا وأكثروا فيه، فقال له : « ليس إلا ما أقول » وينبغي ونحن نرصد تطور هذه الفتنة وظهورها ألا نغفل ولا ينبغي لباحث قط أن يغفل دور المعتزلة وأشياعهم في تأجيج نار المعركة، فإنهم بالتأكيد لم يقفوا مكتوفي الأيدي أو مسالمين، وإنما ناسبتهم هذه الفرص فاهتبلوها مسرورين فزادوا في إشعالها ترويجاً لمذهبهم الباطل القائل بخلق القرآن، ومتابعة وإحياء للقضية لما فشلوا مع الإمام أحمد فركبوا مطية مقولة الإمام البخاري وهي قسمين (مجملة فيها تلميح) وأضافوا إليها تحويراً وتطويراً وزيادة مما كان سبباً في تأزم القضية وإنتهائها على هذا النحو المؤسف، وموقف المعتزلة هذا كان وسيكون صورة تتكرر في كل قضية يكون فيها اختلاف وبإمكان هؤلاء الدخول في زوايا هذا الإختلاف ترويجاً لمبدئهم الباطل أو كذباً على أحد أطراف الخلاف نكاية فيه ورغبة في القضاء عليه، وهي لهم على كل حال فرصة جيدة فأمثال هؤلاء إنما يصطادون في الماء العكر . راجع ٣٨٣ وقصته مع أحمد بن سيار .

قال أبو حامد ابن الشرقي: سمعت محمد بن يحيى الذهلي يقول: [القرآن كلام اللّه غير مخلوق من جميع جهاته، وحيث تصرف، فمن لزم هذا استغنى عن اللفظ [1]، وعما سواه من الكلام في القرآن، ومن زعم أن القرآن مخلوق فقد كفر [2] وخرج عن الإيمان، وبانت منه امرأته، يستتاب فإن تاب وإلا ضربت عنقه، وجعل فيئاً بين المسلمين ولم يدفن في مقابرهم، ومن وقف، فقال: لا أقول مخلوق ولا غير مخلوق، فقد ضاهى الكفر [3] ومن زعم لفظي بالقرآن مخلوق فهو مبتدع لا يجالس ولا يكلم [4]، ومن ذهب بعد هذا إلى محمد إبن إسماعيل البخاري فاتهموه فإنه لا يحضر مجلسه إلا من كان على مثل مذهبه] [5].

---

(١) الذهلي هنا يحكي تصميمه على متابعة أحمد في عدم التعرض للمسألة أساساً، والإيمان بأن القرآن غير مخلوق على كل حال.

(٢) هذا حكمه على المعتزلة القائلين بخلق القرآن، ويجب ألا نفهمه على البخاري كما هو واضح من تقسيماته الكلام على المعتزلة ثم الواقفة ثم اللفظية. ولا يظن بالذهلي أن يخرجه الغضب إطلاقاً لتكفير البخاري، فليفهم. وانظر حكمه هذا في المعتزلة القائلين بخلق القرآن في شرح أصول السنة للالكائي ٢/ ٣١٠.

(٣) وانظر قوله في الواقفة ضمن علماء خراسان في شرح اعتقاد أصول السنة للالكائي ٢/ ٣٢٨. قال: «وعن محمد بن يحيى الذهلي: من وقف في القرآن فمحله محل من زعم أن القران مخلوق» والواقفة كما هو ظاهر من كلام الذهلي هم الذين يقفون في القرآن فلا يقولون مخلوق ولا غير مخلوق. وهو وصف يطلق على اتجاهين، الأول: من يقف ولا يصرح بعقيدته لعدم وضوح الحق لديه فهذا شاك. وإذا لم يتب فهو كافر. الثاني: من يقف تورعاً مع اعتقاده «أن القرآن كلام اللّه» ولكنه كره الخوض في ذلك. فهو مبتدع لظهور المسألة ووضوحها... انظر الرد على الجهمية للإمام عثمان بن سعيد الدارمي، باعتناء بد البدر ص١٦٧ - وأقوال السلف في تكفيرهم وتبديعهم في شرح أصول إعتقاد أهل السنة للاكائي ٢/ ٣٢٣- ٣٢٩ -.

(٤) هذا ما يخص الإمام البخاري من كلام الذهلي وهو تبديعه لقوله " لفظي بالقرآن مخلوق " كما فهم ذلك الذهلي وجماعة من العلماء.

(٥) السير ١٢/ ٤٥٥ - ٤٥٦.

وقال الحاكم : أخبرنا أبو عبداللّه محمد بن يعقوب ابن الأخرم، سمعت ابن علي المخلدي، سمعت محمد بن يحيى يقول : قد أظهر هذا البخاري قول اللفظية، واللفظية عندي شر من الجهمية [1].

وليس مقصود الذهلي رحمه اللّه أن البخاري وافق الجهمية في معتقداتهم ولا أنَّ حكمه حكمهم، فهذا دونه خَرْطَ القتاد فيهما رضي اللّه عنهما، بدليل أنّه

---

(١) السير ١٢/ ٤٥٩ ، هدى الساري ٤٩٢ ، والذي فهمه الذهلي من تفصيل القول في اللفظ أنه خروج عن السنة وعن حياد الإمام أحمد ، وظنَّ ظناً بعيداً هو وأبو زرعة وأبو حاتم الرازيان وأبو بكر ابن الأعين، وأنه من الصنف الثالث من الجهمية الذين قسمهم الإمام أحمد والأئمة وقد سبق ولا بأس أن أعيده لأهميته قالوا :(افترقت الجهمية ثلاث فرَق : فرقة قالت : القرآن مخلوق، وفرقة قالت : نقف فلا نقول مخلوق ولا غير مخلوق، وفرقة قالت : تلاوة القرآن واللفظ بالقران مخلوق) أ. هـ انظر درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ١/ ٢٦٠ ، وقول الفرقة الثالثة هو الذي اشتمل على حق وباطل ، وهو الذي دار فيه النقاش بين المحدثين وجرى عليه الإختلاف ولم يَبُتّ فيه الإمام أحمد إلا بالحياد، لأن كثيراً ممن قالوا به كان مقصدهم التجهم والقول بخلق القرآن، ولكن لم يتجرأ على ذلك لغلبة أهل السنة، فاستتروا بهذا القول، كما قال ابن تيمية في "مجموع الفتاوى ٧/ ٦٥٥ عندما سئل عن الإيمان مخلوق أم غير مخلوق، . . . فعندما فصّل البخاري وتجرأ في ذلك لأمانة التبليغ والبيان وقوله هو الحق رحمه اللّه، ولم يؤثر عن الإمام أحمد تفصيل بذلك بل التجيهم والتبديع حكمةً منه رحمه اللّه في وقت نشوء الفتنة، قال ابن قيم الجوزية : " فالبخاري أعلم بهذه المسألة وأولى بالصواب فيها من جميع من خالفه، وكلامه أوضح وأمتن من كلام أبي عبد اللّه، فإن الإمام أحمد سد الذريعة، حيث منع إطلاق لفظ المخلوق نفياً وإثباتاً على اللفظ » . مختصر الصواعق المحرقة ص٤٣٨ .

« أقول » فلما فصّل البخاري ولم يؤثر عن الإمام أحمد تفصيل ظن الذهلي وغيره مجانبته للسنة على جلالة قدره عندهم، ومع هذا عادوه من أجل السنة كما فهموا من القضية، وحصل أن ورد البخاري "مرو" سنة ٢٥٠هـ وسمع منه أبو حاتم وأبو زرعة ثم تركا حديثه لما كتب إليهما محمد ابن يحيى أنه أظهر أن لفظه بالقرآن مخلوق. " الجرح والتعديل "٧/ ١٩١ وقد عقَّب على هذا الإمام الذهبي فقال " إن تركا حديثه أو لم يتركاه، فالبخاري ثقة مأمون محتج به في العالم " السير ١٢/ ٤٦٣ ، والقضية فيها اضطراب كما قال ابن تيمية : « ومسألة القرآن قد كثر فيها اضطراب الناس حتى قال بعضهم : مسألة الكلام حيرت عقول الأنام، وغالبهم يقصدون وجهاً من الحق ويعزب عنهم وجهٌ آخر »مجموع الفتاوى ١٢/ ٢١١ .

بدّعه وأمر بهجره فقط كما مرَّ معنا . وإنما مقصوده أنَّه وافق من يقول منهم « لفظنا بالقرآن مخلوق » وهم في حقيقتهم يريدون القول بخلق القران .

ويبين ابن تيمية أن تجهيم من يتلبس بإحدى مسائل الجهمية معناه « تضعيف قوله في تلك المسألة بالذات » ويُظْهِرُ للذهلي في ذلك العذر، « لأنه كان يرى حال البخاري حال من جهمهم أحمد » كما فهم من تصريحاته وما نُسبَ إليه . يقول ابن تيمية : « وعامة كلام أحمد إنما هو يجهم اللفظية . لا يكاد يطلق القول بتكفيرهم كما يطلقه بتكفير المخلوقية . وقد نُسبَ إلى هذا القول غير واحد من المعروفين بالسنة والحديث : كالحسين الكرابيسي، ونعيم بن حمّاد الخزاعي، والبويطي، والحارث المحاسبي، ومن الناس من نسب إليه البخاري »[1] .

ويبدو من نص كلام الذهلي متابعته لأحمد فقد نقل العليمي سؤال أحمد ابن إبراهيم للإمام أحمد قال : هؤلاء الذين يقولون : إن ألفاظنا بالقرآن مخلوقة ؟ فقال : « هذا شر من الجهمية . من زعم هذا فقد زعم أن جبريل جاء بمخلوق، وأن النبي صلى اللّه عليه وسلم تكلم بمخلوق » أ . هـ [2] .

ويتضح من كلام الذهبي الآتي صلابة الذهلي ووقوفه عند نصوص الإمام أحمد والمنع من الخوض في المسألة كلية : وكان في ذلك يشكل منهجاً تربوياً فكرياً فيه الحيطة والحذر الشديدين من المخالفة والحيدة عن السنة، لذا لما تجرأ البخاري فلوَّح وما صرح ظن به الذهلي الظنون ومع رفعه لمقامه من التجهم والإعتزال كلية إلا أنه يراه قد تلبس ببعض كلام الجهمية، والتلبس ببعض كلام الجهمية قد وقع فيه بعض أهل الإثبات لأسماء اللّه كابن رشد الحفيد ومثل ابن كلاب والقلانسي والأشعري [3] . ويقول الذهبي في هذا الصدد : « كان الذهلي

---

(١) مجموع الفتاوى ١٢/ ٢٠٦ .

(٢) المنهج الأحمد ١/ ٢١ .

(٣) انظر عرض ابن تيمية لهذه المسائل في مجموع الفتاوى ١٢/ ٢٠٥، ٢٠٦ .

شديد التمسك بالسنة، قام على محمد بن إسماعيل لكونه أشار في مسألة « خلق العباد» إلى أن تلفظ القارىء بالقرآن مخلوق، فلوّح وما صرّح، والحق واضح، ولكن أبي البحث في ذلك أحمد بن حنبل وأبو زرعة والذهلي، والتوسع في عبارات المتكلمين سداً للذريعة، فأحسنوا أحسن اللّه جزاءهم، وما زال كلام المتعاصرين بعضهم في بعض لا يلوى عليه بمفرده» (١).

وهذا قول آخر في عقيدته في القرآن :-

قال محمد بن نعيم سمعت محمد بن يحيى الذهلي يقول : « الإيمان قول وعمل يزيد وينقص، والقرآن كلام اللّه غير مخلوق بجميع جهاته، وحيث تصرف ولا نرى الكلام فيما أحدثوا فتكلموا في الأصوات والأقلام، والحبر والورق، وما أحدثوا من المَتْلي والمُتْلى، والمَقْري والْمُقْري، فكل هذا عندنا بدعة، ومن زعم أن القرآن محدث فهو عندنا جهمي لا نشك في ذلك ولا نمتري » (٢).

قال الذهبي بعد هذه الرواية عن الذهلي : « كان الذهلي إمام خراسان بعد إسحاق بلا مدافعة وكان رئيساً مطاعاً عظيم الشأن ».

وهنا تبدو لنا مشابهة أقوال الذهلي لأحمد « فقوله القران كلام اللّه غير مخلوق بجميع جهاته، وحيث تصرف » قد أُثر نفسه عن أحمد والأئمة السابقين (٣) وباقي كلامه يدل على شدته المتناهية في عدم الخوض في الكلام بتاتاً حتى وإن كان فيه بيان للحق كالتفريق بين القراءة والمقروء كما فعله البخاري . . . . تديناً ومتابعةً لأحمد . . . **والذي نعتقده فيه أنه يرى خلق أفعال العباد وأنَّ قراءة العبد للقرآن مخلوقة « وإن لم يكن بين أيدينا نصٌ في ذلك عنه »**

---

(١) السير ١٢/ ٢٨٥ .

(٢) مختصر العلو للعلي الغفار للإمام الذهبي ص٢٠١ .

(٣) انظر درء تعارض العقل والنقل ١/ ٢٦٥ بتحقيق محمد رشاد سالم .

ويؤكد هذا ويبينه السبكي رحمه اللّه قال : « وقال محمد بن يحيى الذهلي من زعم أن لفظي بالقرآن مخلوق فهو مبتدع لا يجالس ولايكلم . . . ومن زعم أن القرآن مخلوق فقد كفر . . . وإنما أراد محمد بن يحيى - والعلم عند اللّه - ماأراده أحمد بن حنبل كما قدمناه في ترجمة الكرابيسي[1] من النهي عن الخوض في هذا، ولم يرد مخالفة البخاري ، وإن خالفه وزعم أن لفظه الخارج من بين شفتيه المحدثتين قديم فقد باء بأمر عظيم، والظن به خلاف ذلك، وإنما أراد هو وأحمد وغيرهما من الأئمة النهي عن الخوض في مسائل الكلام، وكلام البخاري عندنا محمول على ذكر ذلك عند الإحتياج إليه، فالكلام في الكلام عند الإحتياج واجب والسكوت عنه عند عدم الإحتياج سنة، فافهم ذلك ودع عنك خرافات المؤرخين، واضرب صفحاً عن تمويهات المضلين، الذين يظنون أنهم مُحَدِّثون، وأنهم عند السنة واقفون، وهم عنها مبعدون، وكيف يظن بالبخاري أنه يذهب إلى شيء من أقوال المعتزلة وقد صح عنه أنه قال : إني لأستجهل من لم يكفر الجهمية، ولا يرتاب المنصف في أن محمد بن يحيى الذهلي لحقته آفة الحسد، التي لم يسلم منها إلا أهل العصمة »[2] .

والسبكي رحمه اللّه الذي قرر أن الذهلي قد لحقته آفة الحسد، قد قال : « وكان البخاري على ما روى وحكى فيه ممن قال لفظي بالقران مخلوق »[3] .

وأعقب وأقول أن كلام السبكي هذا محض فهم وتحليل منه في هذه المعضلة ،وله ذلك فإننا جميعاً لا توجد لدينا نصوص كافية لدقائق الأحداث تجعلنا ننفي الحسد عن الذهلي وثورته ومن معه على البخاري وإن كنت أجعل

---

(١) انظر طبقات الشافعية الكبرى ٢/ ١١٨ .

(٢) طبقات الشافعية الكبري ٢/ ٢٣٠ ، تاريخ الإسلام حوادث « ٢٥١ - ٢٦٠ » ، ٢٦٨ .

(٣) المصدر السابق ٢/ ٢٢٩ .

نصيباً كبيراً من ذلك تديناً منه ورفضاً للبدع، وكلامه في البخاري قاله لما فُهِم ونُقِل من مخالفيه وعامة طلبة العلم ، وإن كان رحمه اللّه قد نفى ذلك ، وهو الصادق ولكن في عرض مثل هذه الأمور يؤخذ في الإعتبار جميع الأطراف وقد بيّن السبكي أن تحليلاته السابقة كانت فهماً من كلامهم في غير رواية . فقال . . . . : «والحاصل ما قدمناه في ترجمة الكرابيسي من أن أحمد بن حنبل، وغيره من السادات الموفقين، نهوا عن الكلام في القرآن جملة وإن لم يخالفوا في مسألة اللفظ، فيما نظنه فيهم، إجلالاً لهم وفهماً من كلامهم في غير رواية، ورفعاً لمحلهم عن قول لا يشهد له معقول ولا منقول، ومن أن الكرابيسي والبخاري وغيرهما من الأئمة الموفقين أيضاً أفصحوا بأن لفظهم مخلوق، لما احتاجوا إلى الإفصاح، هذا إن ثبت عنهم الإفصاح بهذا وإلا فقد نقلنا لك قول البخاري أن من نقل عنه هذا فقد كذب عليه . فإن قلت : إذا كان حقاً لمَ لا يفصح به ؟ قلت : سبحان اللّه قد أنبأناك أن السرَّ في تشديدهم في الخوض في الكلام في علم الكلام خشية أن يجرهم الكلام فيه إلى ما لا ينبغي، وليس كل علم يفصح به، فاحفظ ما نلقيه، واشدد عليه يديك » [1] .

(١) المصدر السابق ٢/ ٢٣١ .

إشتداد الوحشة بين البخاري والذهلي

قال الحاكم: وسمعت محمد بن صالح بن هاني، سمعت أحمد بن سلمة يقول: دخلت على البخاري فقلت: يا أبا عبد الله هذا رجل مقبول بخراسان خصوصاً في هذه المدينة، وقد لجَّ في الحديث حتى لا يقدر أحد منا أن يكلمه فيه، فما ترى؟ فقبض على لحيته، ثم قال: ﴿ **وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد** ﴾ [1] اللهم إنك تعلم أني لم أرد المقام بنيسابور أشراً ولا بطراً، ولا طلباً للرئاسة، وإنما أبت علي نفسي في الرجوع إلى وطني لغلبة المخالفين[2] وقد قصدني هذا الرجل حسداً لما آتاني الله لا غير، ثم قال لي يا أحمد إني خارج غداً لتتخلصوا من حديثه لأجلي، قال فأخبرت جماعة من أصحابنا، فوالله ما شيعه غيري، كنت معه حين خرج من البلد، وأقام على باب البلد ثلاثة أيام لإصلاح أمره » [3].

---

(١) سورة غافر آيه ٤٤.

(٢) وطنه هو بخارى ولم أجد فيما قرأت من هم المخالفون له في بخارى وماسبب الخلاف وهل هو نفس القضية أم غيرها.

(٣) السير ١٢/ ٤٥٩، هدى الساري ٤٩٢.

دفاع مسلم عن البخاري وقوله بمذهبه مما سبب الوحشة بينه وبين الذهلي وأدّى إلى خروج البخاري من نيسابور

ويبدو أن الذهلي كان يكن للإمام مسلم محبة وتقديراً لذا نراه لمّا وافق البخاري على مذهبه وأصر على القول باللفظ معه يشتد غضبه وتستحكم الوحشة بينه وبين الذهلي .

قال الخطيب البغدادي : أخبرني محمد بن علي المقرىء أخبرنا محمد بن عبدالله النيسابوري قال سمعت أبا عبدالله محمد بن يعقوب الحافظ يقول : لما استوطن محمد بن اسماعيل البخاري نيسابور ، أكثر مسلم بن الحجاج الاختلاف إليه ، فلما وقع بين محمد بن يحيى والبخاري ماوقع في مسألة اللفظ ونادى عليه ، ومنع الناس من الاختلاف إليه حتى هجر ، وخرج من نيسابور في تلك المحنة قطعه أكثر الناس غير مسلم ، فإنه لم يتخلف عن زيارته ، فأنهي إلى محمد بن يحيى أن مسلم بن حجاج على مذهبه قديماً وحديثاً ، وأنه عوتب على ذلك بالعراق والحجاز ولم يرجع عنه [1] فلما كان يوم مجلس محمد بن يحيى قال في آخر مجلسه : ألا من قال باللفظ فلا يحل له أن يحضر مجلسنا .

فأخذ مسلم الرداء فوق عمامته وقام على رؤوس الناس وخرج من مجلسه وجمع كل ماكان كتب منه وبعث به على ظهر جمال إلى باب محمد بن يحيى فاستحكمت بذلك الوحشة وتخلف عنه وعن زيارته [2] .

وقال ابن كثير : « وترك الرواية عن الذهلي بالكلية فلم يرو عنه شيئاً في الصحيح ولافي غيره ، واستحكمت الوحشة بينهما» [3] .

---

(١) في الكلام السابق دلالة على أن مذهب الذهلي كان سائداً في نيسابور والعراق والحجاز .

(٢) تاريخ بغداد ١٣/ ١٠٣ .

(٣) البداية والنهاية ١١/ ٣٤ . وقال الحافظ ابن حجر في هدي الساري ص٤٩١ : «وقد أنصف مسلم فلم يحدث في كتابه لا عن هذا ، ولا عن هذا» .

قال الحاكم: وسمعت محمد بن يوسف المؤذن سمعت أبا حامد ابن الشرقي يقول: حضرت مجلس محمد بن يحيى الذهلي فقال: ألا من قال لفظي بالقرآن مخلوق فلا يحضر مجلسنا، فقام مسلم بن الحجاج من المجلس. رواها أحمد بن منصور الشيرازي عن محمد بن يعقوب، فزاد، وتبعه أحمد بن سلمة.

قال أحمد بن منصور الشيرازي: سمعت محمد بن يعقوب ابن الأخرم، سمعت أصحابنا يقولون: لما قام مسلم وأحمد بن سلمة من مجلس الذهلي، قال الذهلي: لايساكنني هذا الرجل في البلد. فخشي البخاري وسافر[1].

(١) السير ١٢/ ٤٦٠، وقال ابن حجر معقباً على موقف مسلم "وقد أنصف مسلم فلم يحدث في كتابه عن هذا ولا هذا" هدي الساري ٤٩١، وهناك رواية معلقة مرجوحة في سبب انقطاع مسلم عن الذهلي، قال الحاكم: «وقال مكي بن عبدان: وافى داود بن على الأصبهاني نيسابور أيام إسحاق بن راهويه، فعقدله مجلس النظر، وحضر مجلسه يحيى ابن الذهلي ومسلم بن الحجاج، فجرت مسألة تكلم فيها يحيى، فزبره داود، قال: اسكت ياصبي ولم ينصره مسلم، فرجع إلى أبيه، وشكا إليه داود، فقال أبوه: ومن كان ثَمَّ؟ قال: مسلم ولم ينصرني، قال: قد رجعت عن ماحدثته به، فبلغ ذلك مسلماً، فجمع ماكتب عنه في زنبيل، وبعث به إليه وقال لاأروي عنك أبداً. قال أبو عبدالله الحاكم: علقت هذه الحكاية، عن طاهر بن أحمد عن مكي، وقد كان مسلم يختلف بعد هذه الواقعة إلى محمد بن يحيى، وإنما انقطع عنه من أجل البخاري... الخ. سير أعلام النبلاء١٢/ ٥٧١.

وقال الذهبي رحمه الله: ثم إن مسلماً لحدة في خلقه، انحرف أيضاً عن البخاري، ولم يذكر له حديثاً، ولاسماه في صحيحه، بل افتتح كتابه بالحط على من اشترط اللقي لمن روى عنه بصيغة «عن»... الخ، السير١٢/ ٥٧٣.

خروج الإمام البخاري من نيسابور

قال أبو عبدالله الحاكم: أول ماورد البخاري نيسابور سنة تسع ومئتين، ووردها في الأخير سنة خمسين ومئتين فأقام بها خمس سنوات يحدث على الدوام[1]. وهناك رواية تذكر دخول البخاري إلى «مرو»[2] وأنه سئل فيها عن اللفظ، ولانعلم إن كان دخوله إياها أثناء إقامته بنيسابور، أو بعد خروجه منها في المرة الأخيرة وكانت قبل بخارى.

قال أحمد بن منصور الشيرازي سمعت القاسم بن القاسم يقول: سمعت إبراهيم ورّاق أحمد بن سيار يقول: لما قدم البخاري مرو استقبله أحمد بن سيَّار فيمن استقبله، فقال له أحمد: ياأبا عبدالله، نحن لانخالفك فيما تقول، ولكن العامة لاتحمل ذا منك. فقال البخاري: إني أخشى النار، اسأل عن شيء أعلمه حقاً أن أقول غيره، فانصرف عنه أحمد بن سيار[3].

ويبدو أن خروجه من نيسابور كان عام ٢٥٥هـ وتوجه إلى بخاري وفيها حدث له من المحن والشدائد ما اللّه به عليم.

---

(١) السير ١٢/ ٤٠٤.

(٢) «مَرْوُ» الرُّوذ والنسبة إليها «مروذي» ومرو الشاهجان والنسبة إليها «مَرْوَزي» وبينهما خمسة أيام والأخيرة هي أشهر مدن خراسان وبينها وبين نيسابور ٧٠فرسخاً. معجم البلدان٥/ ١١٢.

(٣) السير١٢/ ٤٦٢، وانظر ترجمة أحمد بن سيَّار ص ٢٢٤.

محنة البُخَارِي في بُخَارَى* مع أميرها خالد بن أحمد الذهلي**

قال غنجار في تاريخه: « سمعت أبا عمرو أحمد بن محمد المقرىء، سمعت بكر بن منير بن خليد بن عسكر يقول: بعث الأمير خالد بن أحمد الذهلي والي بخارى إلى محمد بن إسماعيل أن احمل إلي كتاب «الجامع» و«التاريخ» وغيرهما لأسمع منك فقال لرسوله: أنا لاأذل العلم، ولاأحمله إلى أبواب الناس. فإن كانت لك إلى شيء منه حاجة فاحضر في مسجدي، أو في داري. وإن لم يعجبك هذا فإنك سلطان، فامنعني من المجلس ليكون لي عذر عند اللّه يوم القيامة، لأني لاأكتم العلم لقول النبي صلى اللّه عليه وسلم: « من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله بلجام من نار»[1] فكان سبب الوحشة بينهما هذا[2]. وقال الحاكم: «حدثنا خلف بن محمد حدثنا سهل بن شاذرية قال: كان محمد بن إسماعيل يسكن سكّة الدَّهقان، وكان جماعة يختلفون إليه يظهرون شعار أهل الحديث من إفراد الإقامة، ورفع الأيدي في الصلاة وغير ذلك فقال حريث ابن أبي ورقاء وغيره: هذا رجل مشغب، وهو يفسد علينا هذه المدينة، وقد أخرجه محمد بن يحيى من نيسابور، فاحتجوا عليه بابن يحيى، واستعانوا عليه بالسلطان في نفيه من البلد، فأخرج وكان محمد بن

(*) بُخَارى: بالضم، من بلاد خراسان، وهي بلد واسع يشفّ على المدن كبراً ومحاسن وكثرة أشجار، افتتحها سعيد بن عثمان بن عفان زمن معاوية رضي الله عنه، وقد استباحها التتر سنة ٦١٦هـ، انظر معجم البلدان لياقوت الحموي ١/ ٣٥٣، والروض المعطار للحميري ص٨٢.

(**) سبقت ترجمته ص ٥٨.

(١) الحديث أخرجه أبو داود في سننه(٣٦٥٨) في كتاب العلم باب كراهية منع العلم (٤/ ٦٧) وأورده الألباني في صحيح أبي داود وقال: حسن صحيح ٢/ ٦٩٦.

(٢) السير ١٢/ ٤٦٤.

إسماعيل ورعاً يتجنب السلطان ولايدخل عليهم»[1]. وفي رواية رواها الحاكم عن محمد بن العباس الضبي أن سبب اخراج البخاري هو عدم حمل كتابيه الجامع والتاريخ إلى أمير بخارى فاستعدى عليه ببعض أهل بخارى ومنهم حريث ابن أبي الورقاء وتكلموا في مذهبه ونفي عن البلد[2].

وهناك روايات فيها أن محمد بن يحيى الذهلي كتب إلى أمير بخارى خالد ابن أحمد بما أظهره البخاري في نيسابور من اللفظ مما كان سبباً في إخراجه. . . . . وهذه الروايات لاتخلو من ضعف واضطراب ومثال ذلك: -

رواية أحمد بن منصور الشيرازي قال: سمعت بعض أصحابنا يقول: لما قدم أبو عبدالله بخاري نُصبَ له القباب على فرسخ من البلد، واستقبله عامة أهل البلد حتى لم يبق مذكورَ إلا استقبله، ونُثر عليه الدنانير والدراهم والسكر الكثير، فبقي أياماً. قال فكتب بعد ذلك محمد بن يحيى الذهلي إلى خالد بن أحمد الذهلي أمير بخاري أن هذا الرجل قد أظهر خلاف السنة فقرأ كتابه على أهل بخارى، فقالوا لانفارقه فأمره الأمير بالخروج من البلد فخرج»[3].

وهذه الرواية الوحيدة على انقطاع سندها كما هو واضح فإن الشطر الأخير منها يخالف تماماً مانقله نفس الراوية ونفس النص[4] إلا جزءه الأخير والذي يفيد أن الذهلي لم يكن له في القضية أي تدخل، وانما وقع بين البخاري وبين أمير بخارى فامره بالخروج إلى بيكند وهذا اضطراب، إذ إن الروايتين كلتيهما رويتا عن الشيرازي وجزء يها الأخيرين متناقضان تماماً. وقال الذهبي لما ذكرها: هذه رواية شاذة منقطعة والصحيح مايأتي بخلافها[5].

١) تاريخ بغداد٢/ ٣٣، طبقات الشافعية الكبرى ٢/ ٢٣٢، هدي الساري ص ٤٩٣، سير أعلام النبلاء١٢/ ٤٦٥.

(٢) هدي الساري ٤٩٣، السير١٢/ ٤٦٤، تاريخ بغداد٢/ ٣٣، طبقات الشافعية الكبرى٢/ ٢٣٣.

(٣) السير١٢/ ٤٦٣.

(٤) انظره في هدي الساري ٤٩٣.

(٥) السير ١٢/ ٤٦٤.

« وذكر ابن كثير أن كتاب الذهلي وصل إلى أمير بخارى في وقت اختلافه مع محمد بن إسماعيل . . . الخ » وكان كلامه رحمه اللّه عارياً من الاسناد والتوثيق وإن كان هو إمام المحدثين والناقدين. ولكنه كان أقرب إلى التعليق والتدليل على أن البخاري مستجاب الدعوة لأنه دعا على أمير بخارى فاستجاب اللّه دعاءه كما سأورده بعد قليل (١).

وثمَّ رواية ثالثة أوردها الذهبي في سيره قال : " سمعت ابن الأخرم يقول سمعت أحمد بن سلمة يقول : سئل محمد بن إسماعيل البخاري عن القرآن فقال : كلام اللّه. فقالوا كيفما تصرَّف؟ فقال: والقرآن يتصرف بالألسنة؟ فأُخبر محمد بن يحيى فقال: من أتى مجلسه فلا يأتيني وأخرج جماعة، فخرج إلى بخارى. وكتب الذهلي إلى خالد أمير بخارى وإلى شيوخها بأمره، فهمّ خالد حتى أخرجه محمد بن أحمد بن حفص إلى بعض رباطات بخارى، فبقي إلى أن كتب إلى أهل سمرقند يستأذنهم في القدوم عليهم، فامتنعوا عليه ومات في قرية(٢).

وهذه الرواية إجابات البخاري فيها تخالف ماعرف عنه من بيان لموقفه دون تردد «وتفصيله لمذهبه» الذي سبب له الخروج من نيسابور، فكيف يكتفي هنا بمثل هذه الإجابات وقد عاهد اللّه أن يقول الحق. . . . . !

هذه هي الروايات التي تذكر أن للذهلي ضلعاً في إيذائه ببخارى. . . . وهي كما ترى لاتثبت أمام الروايات المذكورة والتي تؤكد أن محنته رحمه اللّه كانت محض خلاف ووحشة مع أميرها خالد الذي استعدى عليه بعض أتباعه واستغلوا موقف الذهلي منه فشهروا به وأخرجوه. وعلى فرض تماسك هذه

---

(١) البداية والنهاية ١١/ ٢٧.

(٢) السير ١٢/ ٦١٧. والذي أخرج البخاري إلى الرباط هو ابن الزبرقان وكان رفيقاً له أيام الطلب وكان كما ذكره الذهبي عالم ماوراء النهر، إمام للحنفية ثقة ورعاً صاحب سنة واتباع. واسم القرية « خرْتَنْك» كما سيأتي.

الروايات سندا ومتناً وأن الذهلي قد كاتب أمير بخارى . . فإن البخاري موقفه متباين من الطائفتين . . . ففي حين نجده يعذر الذهلي فيما عمل معه ويؤول عمله بالحسد ومن ثم يروى عنه في صحيحه ٣٤ حديثاً، وفي غير الصحيح ويكتفي بألا يذكر اسمه كاملاً[١] ، نجده في المقابل يدعو على أمير بخارى وابن أبي الورقاء ومن عاونهما عليه، وكأنه شعر أنهم يعادونه بهتاناً وظلماً ودونما سبب وجيه . . . وتروي لنا الأخبار أن اللّه استجاب دعاءه فأراه فيهم عجائب قدرته كما سيأتي بعد قليل .

وقد اشتدت المحنة بالبخاري في بخارى وكان صابراً مفوضاً أمره إلى اللّه، ولكنه أخيراً دعا عليهم فمزقهم اللّه .

قال محمد ابن أبي حاتم : « سمعت البخاري يقول : لم يكن يتعرض لنا قط أحد من أفناء الناس إلا رمي بقارعة، ولم يسلم، وكلما حدث الجهال أنفسهم أن يمكروا بنا رأيت من ليلتي في المنام ناراً توقد ثم تطفأ من غير أن ينتفع بها فأتأول قوله تعالى ﴿ **كلماأوقدوا ناراً للحرب أطفأها اللّهَ**﴾[٢]، وكان هجِّيراه من الليل إذا أتيته في آخر الليل مقدمه من العراق ﴿**إن ينصركم اللّه فلا غَالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده** ﴾[٣] .

وقال ابن أبي حاتم : أتى رجل إلى أبي عبداللّه البخاري فقال : ياأبا عبداللّه إن فلاناً يكفرك فقال : قال النبي صلى اللّه عليه وسلم : (**إذا قال الرجل لأخيه ياكافر فقد باء به أحدهما**)[٤] . وكان كثير من أصحابه يقولون له : ان بعض الناس

---

(١) البداية والنهاية ١١/ ٣٤ .

(٢) المائدة : ٦٤ .

(٣) آل عمران : ١٦٠ .

(٤) أخرجه في صحيحه الإما م البخاري في كتاب الأدب، باب من كفر أخاه من غير تأويل فهو كما قال ٧/ ١٢٦ من حديث أبي هريرة واللفظ له، ومسلم في صحيحه، في كتاب الإيمان، باب بيان حال من قال لأخية المسلم : يا كافر ١/ ٧٩، من حديث عبد الله بن عمر بنحوه .

يقع فيك فيقول: ﴿ **إنَّ كيد الشيطان كان ضعيفاً** ﴾[1] ويتلو ﴿ **ولايحيق المكر السيء إلا بأهله** ﴾[2] فقال له عبدالمجيد بن إبراهيم: كيف لاتدعواللّه على هؤلاء الذين يظلمونك ويتناولونك ويبهتونك؟ فقال: قال النبي صلى اللّه عليه وسلم «اصبروا حتى تلقوني على الحوض»[3] وقال صلى اللّه عليه وسلم «من دعا على ظالم فقد انتصر»[4][5].

وقد جعلت ذكر أحواله هذه في محنته ببخارى لأننا لم نجده في أي رواية يرمي الذهلي بما يرمي به أهل بخارى من الكيد والمكر، بينما نجده في نيسابور صابراً مبيناً للناس مذهبه وكأنه كان عاذراً للذهلي، ويؤكد هذا أنه لم تمر بنا رواية واحدة تبين إصابة الذهلي بدعاء البخاري الذي دعاه على أهل بخارى فقال « اللهم أرهم ماقصدوني في أنفسهم وأولادهم وأهليهم » فاستجاب اللّه دعاءه. فأما خالد فلم يأت عليه إلا أقل من شهرحتى ورد أمر الطاهرية بأن ينادى عليه، فنودي عليه وهو على أتان وأشخص على إكاف ثم صار عاقبة أمره إلى الذل والحبس. وأما حريث ابن أبي الورقاء فانه أبتلي في أهله فرأى فيها مايجل عن الوصف، وأما فلان فانه أُبتلي في أولاده فأراه اللّه فيهم البلايا»[6].

---

(١) النساء: ٧٦.

(٢) فاطر: ٤٣.

(٣) آخر عبارة من حديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة الطائف٥/ ١٢٢، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم٢/ ٧٣٨، حديث رقم ١٠٦١، كلاهما من طريق عبد الله بن عاصم مرفوعاً بمثله.

(٤) حديث ضعيف أخرجه الترمذي في الدعوات ٥/ ٥١٨، باب في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم، حديث رقم ٣٥٥٢ وقال حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث أبي حمزة. وأخرجه أيضاً في العلل الكبير٢/ ٩٢٢، وذكر فيه تضعيف البخاري الشديد لأبي حمزة، والحديث ضعفه أيضاً المناوي في فيض القدير٦/ ١٦٣.

(٥) السير١٢/ ٤٦١.

(٦) من رواية الحاكم عن أبي العباس الضبي، هدي الساري ص ٤٩٣، السير ١٢/ ٤٦٥، طبقات الشافعية الكبرى٢/ ٢٣٣. أما الأمير خالد فقد ذكر الخطيب البغدادي من أخباره ما يلي: « كان نصرك البغدادي يفيد خالد بن أحمد الأمير ببخارى عن ستمائة محدث، غير أن محمد بن . =

أما البخاري فقد خرج إلى قرية خَرْتَنْك[1] على فرسخين من سمرقند، وكان له بها أقرباء فنزل عندهم، ويروي عبدالقدوس بن عبدالجبار السمرقندي أنه سمعه ليلة يدعو وقد فرغ من صلاة الليل، اللهم إنه قد ضاقت عليَّ الأرض بمارحبت فاقبضني اليك[2] فما تم الشهر حتى مات، وقبره بخرتنك.

وقال محمد ابن أبي حاتم: سمعت أبا منصور غالب بن جبريل وهو الذي نزل عليه أبو عبداللّه يقول: «إنه أقام عندنا أياماً فمرض، واشتد به المرض، حتى وجه رسولاً إلى مدينة سمرقند في إخراج محمد[3] فلما وافى تهيأ للركوب، فلبس خفيه وتعمم، فما مشى قدر عشرين خطوة أو نحوها، وأنا آخذ بعضده، ورجل آخر معي يقوده إلى الدابة ليركبها، فقال رحمه اللّه: أرسلوني فقد ضعفت، فدعا بدعوات ثم اضطجع فقضى رحمه الله فسال منه العرق شيء لايوصف، فما سكن منه العرق حتى أدرجناه في ثيابه. . . . الخ»[4] وكانت وفاته ليلة عيدالفطر عند صلاة العشاء عام ست وخمسين ومائتين من الهجرة النبوية.

= إسماعيل حبس عنه ببخارى وأظهر الاستخفاف به، فاعتل عليه خالد باللفظ فنفاه من بخارى حتى مات في بعض قرى سمرقند، وقد قال بعض أهل العلم: إن مافعله بمحمد بن إسماعيل البخاري كان سبب زوال ملكه" وقصة ذلك ماوراه أبو رجاء السندي قال: كان خالد بن أحمد اشتد على الطاهرية في آخر أمورهم ومال إلى يعقوب بن الليث القائم بسجستان، فلما حمل محمد بن طاهر إلى سجستان كان خالد بهراة فتكلم في وجهه بما ساءه، ثم اجتاز خالد ببغداد حاجاً سنة تسع وستون فحبس ببغداد ومات في الحبس سنة تسع وستين ومائتين وقيل توفي سنة سبعين ومائتين. تاريخ بغداد ٨/ ٣١٤.

(١) خَرْتَنْك: قال ياقوت: بفتح أوله، وتسكين ثانيه، وفتح التاء المثناة من فوق، ونون ساكنة، وكاف: قرية بينها وبين سمرقند ثلاثة فراسخ، بها قبر محمد بن إسماعيل البخاري، ينسب إليها أبو منصور غالب ابن جبريل الخَرتنكي، وهو الذي نزل عليه البخاري ومات في داره. معجم البلدان٢/ ٣٥٦ اللباب١/ ٤٣٠، مراصد الإطلاع، لصفي الدين البغدادي ١/ ٤٥٧.

(٢) تاريخ بغداد ٢/ ٤، طبقات الشافعية الكبرى ٢/ ٢٣٢، السير١٢/ ٤٦٦، هدي الساري٤٩٣.

(٣) في هدي الساري« فمرض أياماً حتى وجه إليه رسول من أهل سمرقند يلتمسون منه الخروج إليهم» ص٤٩٣.

(٤) طبقات الشافعية الكبرى ٢/ ٢٣٣، السير١٢/ ٤٦٦، هدي الساري ص ٤٩٣.

المطلب الثالث
اعتذارات العلماء عن البخاري والذهلي وتوجيهاتهم لمثل هذه الاختلافات

وبعد هذه الجولة مع مسألة اللفظ، وما في ثناياها من الاختلاف، وما في طيَّات الأحداث بين الإمامين البخاري والذهلي من غصص وآلام..... لابد أن ننثر على هذه الأحداث« زهوراً... فيَّاحة الشذا» من الاعتذرات أهداها أسلافنا لأسلافهم رحمهم اللَّه أجمعين.

وأتوج هذه الاعتذارات والتوجيهات.. بموقف الإمام البخاري الأخلاقي النبيل الذي، تخطَّى حدود الاختلاف وتجاوز حظوظ النفس.. وهو روايته عن الذهلي أربعة وثلاثين حديثاً[1] في جامعه الصحيح الذي يعد أصح كتاب في الدين بعد كتاب اللَّه واكتفي بألاَّ يذكر إسمه كاملاً. ففي إثباته هذه المرويات توثيق له ولعله التمس له عذر الاجتهاد في الأمر بخلاف أهل بخارى الذين دعا عليهم.

وقد جُمِعَ البخاري والذهلي في مقامات الثناء والمتابعة للسنة وسلامة العقيدة في مواطن:-

* منها :- قول ابن تيمية رحمه اللَّه عند كلامه على تعطيلات الجهمية وتأويلات غيرهم لصفات اللَّه تبارك وتعالى «... ولما كان الاثبات هو المعروف عند أهل السنة والحديث كالبخاري وأبي زرعة وأبي حاتم ومحمد بن يحيى الذهلي.....»[2].

* ومنها :- ماذكره شيخ الإسلام أبو عثمان الصابوني في رسالته القيمة «عقيدة السلف أصحاب الحديث» بعد كلام أبي رجاء قتيبة بن سعيد ،

(١) هذه الأحاديث متفرقة في كتاب الجامع وسأشير إليها جميعاً عند الحديث عن مرويات الذهلي .
(٢) درء تعارض العقل والنقل ٢/ ٨.

وأحمد بن سلمة أن من أحب سفيان الثوري ومالكاً والأوزاعي وشعبة وابن المبارك وأبا الأحوص وشريكاً ووكيعاً ويحيى بن سعيد وعبد الرحمن بن مهدي . . . وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه ويحيى بن يحيى . . . . . فهو صاحب سنة . . . . . قال رحمه اللّه بعد هذا : « وأنا ألحقت بهؤلاء من أئمة الحديث الذين بهم يقتدون، وبهداهم يهتدون، ومن جملتهم وشيعتهم أنفسهم يعدّون، وفي اتباع آثارهم يجدّون، جماعة آخرين وذكر من كل طبقة عدداً . . . . إلى أن ذكر محمد بن يحيى الذهلي ومحمد بن إسماعيل البخاري . . . إلى أن قال : وغيرهم من أئمة السنة المتمسكين بها ، الناصرين لها الداعين إليها، الدالين إليها، . . . . وهذه الجمل« يقصد ماأسلفه من عقيدة السلف» كانت معتقد جميعهم لم يخالف فيها بعضهم بعضاً بل أجمعوا عليها كلها واتفقوا مع ذلك على القول بقهر أهل البدع وإذلالهم وإخزائهم وإبعادهم وإقصائهم والتباعد منهم ومن مصاحبتهم ومعاشرتهم والتقرب إلى اللّه عز وجل بمجانبتهم ومهاجرتهم »(١) .

* ومن هذه التوجيهات قول الإمام البيهقي « . . . . ولمحمد بن يحيى مع محمد بن إسماعيل البخاري رحمهما اللّه تعالى في ذلك قصة طويلة، فإن البخاري كان يفرق بين التلاوة والمتلو، ومحمد بن يحيى كان ينكر التفصيل . . . . الخ»(٢) .

---

(١) الرسالة مطبوعة ضمن مجموعة الرسائل المنيرية١/ ١٠٥ .

(٢) الأسماء والصفات للبيهقي ص ٢٦٧ .

ومن الاعتذارات في مثل هذه الأحداث بين الأقران على اختلاف الدوافع

ماقاله الإمام الذهبي في ميزان الاعتدال في ترجمته لأبي نعيم الأصبهاني وماحدث بينه وبين ابن منده في مسألة اللفظ[1] قال: كلام الأقران بعضهم في بعض لايعبأ به لاسيمّا إذا لاح لك أنه لعداوة أو لمذهب أو لحسد، وماينجو منه إلا من عصم اللّه وماعلمت أن عصراً من الأعصار سلم أهله من ذلك، سوى النبيين والصديقين، ولو شئت لسردت من ذلك كراريس. . . . الخ» .

وقد سبق عرض بعض تحليلاته واعتذاراته[2] ومأأعظم اعتذارات الإمام ابن تيمية رحمه اللّه فقد قال :

«وأعظم ماوقعت فتنة اللفظ بخراسان، وتُعُصِّبَ فيها على البخاري- مع جلالته وإمامته- وإن كان الذين قاموا عليه أيضاً أئمة أجلاء، فالبخاري رضى اللّه عنه من أجل الناس. وإذا حَسُنُ قَصدهم، واجتهد هو وهم، أثابة اللّه وإياهم على حسن القصد والاجتهاد. وإن كان قد وقع منه أو منهم بعض الغلط والخطأ فاللّه يغفر لهم كلهم، ولكن من الجهال من لايدري كيف وقعت الأمور، حتى رأيت بخط بعض الشيوخ الذين هم على علم ودين يقول: مات البخاري بقريه« خَرْتَنْك» فأرسل أحمد إلى أهل القرية يأمرهم أن لايصلوا عليه لأجل قوله

---

(١) كان ابن مندة ممن يقول « اللفظ بالقرآن غير مخلوق» وأبي نعيم يقول « اللفظ به مخلوق» وهما ممن أتى بعد البخاري والذهلي، وكان أيضاً ابن مندة من أصحاب أحمد « الحنابلة» وأبي نعيم «كان من الأشعرية» وكان كلامهما في بعضهما شديداً. راجع سير أعلام النبلاء ١٧/ ٤٥٣ ترجمة أبي نعيم، وراجع ميزان الإعتدال ١/ ١١١ .

(٢) انظر على سبيل المثال ص ٣٧٦-٣٧٧ .

في مسألة اللفظ وهذا من أبين الكذب على أحمد والبخاري، وكاذبه جاهل بحالهما، فإن البخاري رضى اللّه عنه توفي سنة ست وخمسين بعد موت أحمد بخمسة عشر عاماً». (١)

ومن أبين وأبلغ توجيهاته وإعتذراته قوله: «واختلاف الناس في هذا الباب وغيره كثير منه يكون «اختلاف تنوع» مثل أن يقصد هذا حقاً فيما يثبته، والآخر يقصد حقاً فيما نقضه، وكلاهما صادق. ولكن يظنان أن بينهما نزاعا معنويا، ولايكون الأمر كذلك، وكثير من النزاع يعود إلى إطلاقات لفظيَّة، لا إلى معان عقلية وأحسن الناس طريقة من كان اطلاقه موافقاً للإطلاقات الشرعية، والمعاني التي يقصدها معان صحيحة، تطابق الشرع والعقل»(٢). ويقول بعد كلام له طويل عن قضايا خلق القرآن واللفظ والحرف والصوت: «والمقصود هنا التنبيه على أن هذه مقامات دقيقة، مشكلة بسببها افترقت الأمة واختلفت، فإذا اجتهد الرجل في متابعة الرسول والتصديق بما جاء به وأخطأ في المواضع الدقيقة التي تشتبه على اذكياء المؤمنين، غفر اللّه له خطاياه، تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿ **ربنا لاتؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا** ﴾ وقد ثبت في الصحيح أن اللّه قال: قد فعلت(٣). ويقول أيضاً رحمه اللّه: - والذي يعلم من حيث الجملة أن الإمام أحمد والأئمة الكبار الذين لهم في الأمة لسان صدق عام لم يتنازعوا في شيء من هذا الباب، بل كان بعضهم أعظم علماً به وقياماً بواجبه من بعض، وقد غلط في بعض ذلك من أكابر الناس جماعات، وقد رَدَّ الإمام أحمد عامة البدع في هذا الباب هو و الأئمة(٤).

---

(١) مجموع الفتاوى ١٢/ ٢٠٨.
(٢) مجموع الفتاوى ١٢/ ٢١٣.
(٣) مجموع الفتاوى ١٢/ ١٨٨-١٨٩.
(٤) مجموع الفتاوى ١٢/ ٤١٧.

وآخر كلامه يقول : ولاريب أن الخطأ في دقيق العلم مغفور للأمة، وإن كان ذلك في المسائل العلميَّة، ولولا ذلك لهلك أكثر فضلاء الأمة. . . الخ[1].

قُلْتُ: رحم اللَّه سَلَفَنا الصالح ماأحسن سيرهم وماأعظم تفانيهم وماأحرصهم على دين اللَّه ونقائه وصفائه ، حتى لو ذهبت حظوظ أنفسهم بل لو فقدت أرواحهم ، اسأل الله العزيز أن يوفقنا لاقتفاء آثارهم. . . والتحلي بأخلاقهم والتسامي لهِمَمهم. . . والانتفاع بعلمهم . . . فلن يحفظ الدِّين إلا بأمثالهم.

(١) موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول لابن تيمية ٢/ ٤٨ باعتناء عبدالرحمن الوكيل.

المبحث الخامس

أثر مسألة اللفظ في صفوف المحدثين

ما من شك . . أن من تمعّن في هذه المسألة وعرف حقيقة أمرها . . وأنها لاتعدو مجرد خلاف لفظي عند مستقيمي الإعتقاد المتبعين لمنهج السلف في كل قضايا العقيدة وبالأخص مايتعلق بالقرآن الكريم ، ما من شك أن القضيَّة ستقف عند ذلك الحد .

بيد أن الملاحظ من استعراض الأحداث بين الإمامين الذهلي والبخاري أن المسألة قد أخذت مدىً بعيداً ـ وهما جبلان من جبال العقيدة السلفية الصحيحة بشهادات الأئمة ـ وهذا يدلُ بجلاء ووضوح أن هذه المسألة ماهي إلا بذرة من بذور الخلاف والشقاق وكيد من الشيطان وأعوانه لمواكب الإيمان التي استعصت قبل في مسألة (القرآن) هل هو مخلوق أم لا؟ فلما تبدّد حلمهم بتقويض كيان الأمة في اعتقادها في كتاب ربها ، داعبهم الأمل في توهين أمر المحدثين وتفريق صفوفهم ، وتشتيت شملهم لأنهم عماد الأمة في حفظ عقيدتها . . . فتصدع ذلك البناء الشامخ ولكنه لم يسقط ، وتضعضع ذلك الركب المبارك ولكنه أبى إلا الصمود والثبات .

والحديث عن آثار هذه المسألة في صفوف المحدثين يحتاج إلى بحث مستقل واستقراء وتقصي . . . بيد أنه يكفينا في هذه العجالة ذكر ما اتضح وظهر من آثارها .

١ – خلخلة صفوف المحدثين وقطع حبال الود بينهم .

وأول حادثة لهذا ما حصل بين الإمام أحمد والكرابيسي وقد سبق بيانه . فإن الكرابيسي وإن كان من متكلمة السنة إلا أن له جهوداً قوية في العلم والتصنيف وكان بينه وبين الإمام أحمد ثقة ومحبة . ولما أظهر هذه المسألة تبدلت الأحوال .

قال الإمام ابن عبد البر في ترجمة الكرابيسي : « وكانت بينه وبين أحمد بن حنبل صداقة وكيدة، فلما خالفه في القرآن، عادت تلك الصداقة عداوة، فكان كل منهما يطعن على صاحبه. . . »[1].

ويصور هذا المعنى أيضاً قول الإمام ابن قتيبة رحمه اللّه : «وكان آخر ماوقع من الاختلاف أمراً خصَّ بأصحاب الحديث الذين لم يزالوا بالسنة ظاهرين، وبالإتباع قاهرين، يداجون بكل بلد ولايداجون ويستتر منهم بالنحل ولايستترون ويصدعون بحقهم الناس ولايستغشون لايرتفع بالعلم إلا من رفعوا ولايتضع فيه الا من وضعوا . ولاتسير الركبان إلا بذكر من ذكروا إلى أن كادهم الشيطان بمسألة لم يجعلها اللّه تعالى أصلاً في الدين ولافرعاً في جهلها سعة وفي العلم بها فضيلة، فنمى شرها وعظم شأنها حتى فرقت جماعتهم . . الخ»[2]

ولعل أقرب الشواهد لما صوره الإمام ابن قتيبة افتراق الإمامين الذهلي والبخاري بسبب هذه المسألة . وبصرف النظر عن جميع ملابسات ذلك الإفتراق والخلاف - وقد سبق بيان كل ذلك - فإن هذه المسألة قد كانت سبباً في ضياع الجهود وتمزق الصف إزاء الأعداء الحقيقيين كالجهمية والنواصب وسواهم . وقد ترجم ذلك الإمام الذهلي لما خرج لاستقبال الإمام البخاري حيث قال لمن حوله من طلبة العلم : « لا تسألوه عن شيء من الكلام، فإنه إن أجاب بخلاف ما نحن فيه، وقع بيننا وبينه، ثم شمت بنا كل حروريّ، وكل رافضي، وكل جهمي، وكل مرجيء بخراسان »[3]

وكان الإمام مسلم أيضاً طرفاً ثالثاً ناله ذلك الأثر، فترك الرواية عن الإمام الذهلي، وبعث بكل ما رواه عنه على ظهر حمال إلى بابه لما حرّج الذهلي في

---

(١) الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء، ص١٠٦ .
(٢) الإختلاف في اللفظ ص ١١ .
(٣) السير ١٢/ ٤٥٨ .

مجلسه على من يقول بقول البخاري ألاَّ يحضره . . . وقد كان أبوزرعة رحمه الله يتمنى لو تمهل مسلم في فعله ذلك ولم يفوت على نفسه الرواية عن شيخه الذهلي ويداريه ويتحمل تشدده في المسألة فقال : « هذا ليس له عقل، لو دارى محمد بن يحيى لصار رجلاً . (١)

٢- إضطراب الأئمة في التعامل مع من تفوَّه بشيء في المسألة . ولا شك أن دقَّة المسألة وخفاء المراد منها ، جعل عدداً من الأئمة - غير الذهلي - يشتدون على الإمام البخاري ويظنون به ظناً بعيداً وذلك بسبب تلويحه بالحق الذي في المسألة ومن ذلك ترك الإمامين أبي حاتم وأبي زرعة لحديث البخاري بعد أن سمعا منه في بلدهما « مرو » وذلك بعد أن كتب إليهما الذهلي بأمره في نيسابور . (٢) . وعقَّب الإمام الذهبي على ذلك فقال : « إن تركا حديثه أو لم يتركاه، فالبخاري ثقة مأمون، محتج به في العالم » (٣) . ومن ذلك أيضاً توهين أبي بكر الأعين (٤) لأمر الإمام البخاري . بعد ظهور المسألة وذلك لما تعرض للثناء على مشايخ ورجال خراسان حيث قال : مشايخ خراسان ثلاثة : قتيبة ، وعلي بن حجر ، ومحمد بن مهران الرازي ، ورجالها أربعة : عبدالله بن عبد الرحمن السمرقندي ، ومحمد بن إسماعيل البخاري قبل أن يظهر منه ما ظهر ، ومحمد ابن يحيى ، وأبو زرعة ». (٥) وقد علق الذهبي على ذلك فقال : « هذه دقة من الأعين ، والذي ظهر من محمدأمر خفيف من المسائل التي اختلف فيها الأئمة في

---

(١) السير ١٢/ ٢٨١ .

(٢) الجرح والتعديل ٧/ ١٩١

(٣) السير ١٢/ ٤٦٣

(٤) هو محمد ابن أبي عتَّاب الحسن بن طريف البغدادي روى عن علي ابن المديني وأحمد بن حنبل، وعنه مسلم وأبو زرعة وأبو حاتم ، قال الخطيب : لم يكن بالحافظ للطرق والعلل وأما الصدق فليس بمدفوع منه . قال عبدالله ابن أحمد : (. . . فترحم عليه أبي، وقال : إني لأغبطه، مات وما يعرف إلا الحديث، لم يكن صاحب كلام) . مات سنة (٢٤٠) . سير أعلام النبلاء ١٢/ ١٢٠ ، تهذيب التهذيب ٩/ ٢٩٨

(٥) السير ١١/ ٥٠٩ .

القول في القرآن . . . » الخ [1] . والإمام الذهبي قد اتضحت له الرؤى لتأخره الزمني فلم يفاجأ بالمسألة كحال المعاصرين لها . لذا فإن جدَّة الموضوع وخطورة بعض جوانبه قد سببت هذا الإضطراب ، والله أعلم .

٣ - تجاوز الحد - في المنافرة - بسببها إلى الشتم والسباب والإعتداء بالفعل . ومن ذلك ما وقع بين الإمامين أبي عبد الله بن منده وأبي نعيم الأصبهاني [2] ، من إختلاف في المسألة على نحو إختلاف الإمامين الذهلي والبخاري .

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة : « وقع بين أبي نعيم الأصبهاني وأبي عبدالله ابن منده في مسألة اللفظ ما هو معروف ، وصنَّف أبو نعيم في ذلك كتابه في الرد على اللفظيَّة الحلوليَّة ، ومال فيه إلى جانب الثقات القائلين بأن التلاوة مخلوقة ، كما مال ابن مندة إلى جانب من يقول إنها غير مخلوقة ، وحكى كل منهما عن الأئمة ما يدل على كثير من مقصوده لا على جميعه ، فما قصده كل منهما من الحق وجد فيه من المنقول الثابت عن الأئمة ما يوافقه » [3]

وقد تطور هذا الخلاف بينهما إلى نوع من الإعتداء بالقول . وفي ذلك يقول الإمام الذهبي : « كان أبو عبدالله بن منده يقذع في المقال في أبي نعيم لمكان الإعتقاد المتنازع فيه بين الحنابلة وأصحاب أبي الحسن ، ونال أبو نعيم أيضاً من أبي عبدالله في «تاريخه» وقد عرف وهن كلام الأقران المتنافسين بعضهم في بعض . نسأل الله السماح » [4]

---

(١) السير ١١/ ٥١٠

(٢) هو أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق الأصبهاني الحافظ المشهور صاحب كتاب حلية الأولياء ، كان من الأعلام المحدثين ، ولد سنة ٣٣٠- وتوفى سنة ٤٣٠هـ بأصبهان . وفيَّات الأعيان ١/ ٩١ .

(٣) مجموع الفتاوى ١٢/ ٢٠٩ ، طبقات علماء الحديث لابن عبد الهادي ٣/ ٢٩٢ .

(٤) السير ١٧/ ٤٦٢ .

وقد أحسن الإمام الذهبي إذ ردّ كلام كل منهما في الآخر - وهو منهج المحدثين - وأثنى عليهما جميعاً فقال : وكل منهما فصدوق في نفسه ، غير متهم في نقله بحمد الله[1]

وقد شغب ابن منده على أبي نعيم حتى اختفى وقد روى أحد أحفاده واقعة في ذلك قال يحيى بن منده : سمعت عمي عبدالرحمن، سمعت محمد بن عبدالله الطبراني يقول : قمت يوماً في مجلس والدك رحمه الله، فقلت : أيها الشيخ ، فينا جماعة ممن يدخل على هذا المشؤوم - أعني أبا نعيم الأشعري - فقال : أخرجوهم . فأخرجنا من المجلس فلاناً وفلاناً، ثم قال : على الداخل عليهم حرج أن يدخل مجلسنا أو يسمع منّا، أو يروي عنّا، فإن فعل فليس هو منا في حل . .

وعلق الذهبي على ذلك قائلاً : قلت : ربما آل الأمر بالمعروف بصاحبه إلى الغضب والحدة فيقع في الهجران المحرّم، وربما أفضى إلى التكفير والسعي في الدم، وقد كان أبو عبدالله وافر الجاه والحرمة إلى الغاية ببلده » . [2]

وبالفعل فقد اندفع بعض الحنابلة من طلبة العلم المشغبين على رجل دعاهم للإستفادة من أبي نعيم في مجلسه وكادوا يقتلونه، روى السّلفي قال : سمعت محمد بن عبدالجبار الفرْساني يقول : «حضرت مجلس أبي بكر ابن أبي علي المعدَّل في صغري مع أبي فلما فرغ من إملائه قال إنسان : من أراد أن يحضر مجلس أبي نعيم فليقم . وكان مهجوراً في ذلك الوقت بسبب المذهب، وكان بين الحنابلة والأشعرية تعصب زائد يؤدي إلى فتنة، وقال وقيل وصداع، فقام إلى ذلك الرجل أصحاب الحديث بسكاكين الأقلام، وكاد أن يقتل » [3]

---

(١) السير ١٧/ ٣٤.

(٢) السير ١٧/ ٤٠-٤١.

(٣) تذكرة الحفاظ ٣/ ١٠٩٥، طبقات علماء الحديث ٣/ ٢٩١.

وقد علمت مكانة أهل الحديث بين علماء الأمة قاطبة. من حيث الورع والتقى وحسن السمت، مع الحفاظ على العقيدة ونشرها والدفاع عنها بمثل ماأثر عن سيِّد المرسلين صلى الله عليه وسلم. من إقتناع وثبات مع تمني الهداية والرشاد للناس أجمعين وتلكم هي وظيفة هذه الأمة الربانّية. وإن ثبت بعد التحري على شخص ماتلبسه ببدعة أو مخالفة لمنهج السلف، فيجانب بعد أن ينصح ويحذَّر. كما فعل الذهلي رحمه الله مع البخاري حسب اجتهاده وفهمه للمسألة. مع أن البخاري رحمه الله، وأحسن مثواه كان على الحق. والذهلي كان يعتقد مايعتقده البخاري ولكن تباينت توجهاتهما الدعويَّة وأساليبها الحركية في مجتمع يعيث فيه أصحاب الأهواء فساداً . . وقد سبق بيان ذلك .

والعلماء الأئمة رحمهم الله كانوا أقدر من غيرهم على ضبط المشاعر والتروي . . بيد أن طلبة العلم قد شعبوا المسائل وتعصبوا وأساءوا ولذا بكَّتهم الإمام الذهبي على صنيعهم بذلك الرجل فقال: «ماهؤلاء بأصحاب الحديث، بل فجرة جهلة، أبعد الله شرَّهم»(١)

وهكذا كانت هذه المسألة سبباً مباشراً في الاعتداء بالقول والفعل من كلا الطرفين .

٤ - أصبحت هذه المسألة سبباً في جرح أئمة كبار بما لايوجب جرحاً.

وهذا الأمر جدَّ بعد نشوء مسألة اللفظ ووقوع الإختلاف فيها. فكثر في كتب الجرح والتعديل وتراجم الرجال النبز باللفظ، وأن فلاناً تكلم في اللفظ، وغير ذلك، والمؤلم في هذا أن الجارح والمجروح هم من أهل الحديث أو ممن يدور في فلكهم . . بعيدين عن أهل الأهواء والضلال. فتشانؤا واتهم بعضهم بعضاً. وقد حكى ابن قتيبة حالهم فقال في مسألة اللفظ: «ثم انتهى بنا القول إلى غرضنا

---

(١) السير ١٧/ ٤٦٠.

من هذا الكتاب، وغايتنا من اختلاف أهل الحديث في اللفظ بالقرآن، وتشانئهم، وإكفار بعضهم بعضاً. وليس مااختلفوا فيه مما يقطع الألفة، ولا مما يوجب الوحشه، لأنهم مجمعون على أصل واحد وهو : (القرآن كلام الله غير مخلوق) الخ[1]

ومن الأمثلة على ذلك : ماذكرة مسلمة بن قاسم في نعيم بن حماد الخزاعي [2] قال : كان صدوقاً وهو كثير الخطأ وله أحاديث منكرة في الملاحم انفرد بها، وله مذهب سوء في القرآن. كان يجعل القرآن قرآنين. فالذي في اللوح المحفوظ كلام الله تعالى، والذي بأيدي الناس مخلوق.

وقد علق الحافظ ابن حجر على كلامه هذا فقال : « كأنه يريد الذي في أيدي الناس ما يتلونه بألسنتهم ويكتبونه بأيديهم. ولاشك أن المداد والورق والكتب والتالي وصوته كلٌ مخلوق وأما كلام الله سبحانه وتعالى فإنه غير مخلوق قطعاً. [3]

ومن ذلك تجرؤ من لم يشتهر بالعلم على البخاري وأمثاله. قال الحاكم : سمعت أبا الوليد [4] - يقول: قال أبي : أي كتاب تجمع ؟ قلت : أخرج على كتاب البخاري : قال : عليك بكتاب مسلم فإنه أكثر بركة فإن البخاري كان ينسب إلى اللفظ.

قال الإمام الذهبي معلقاً: ومسلم أيضاً منسوب إلى اللفظ والمسألة مشكلة [5]

---

(١) الإختلاف في اللفظ ص ٤٣.

(٢) هو نعيم بن حماد بن معاوية بن الحارث الخزاعي، كان في الحديث صدوقاً يخطيء كثيراً، أما في السنة فكان صلباً، ولصلابته عودي وافترى عليه ثم امتحن في مسألة خلق القرآن حتى مات في الحبس سنة٢٢٨هـ، تهذيب التهذيب١٠/ ٤١٢، التقريب، ص٥٦٤.

(٣) تهذيب التهذيب ١٠/ ٤١٢.

(٤) هو حسان بن محمد بن أحمد بن هارون القزويني النيسابوري الفقيه الشافعي قال الحاكم : هو إمام أهل الحديث بخراسان وأزهد من رأيت من العلماء وأعبدهم. توفى سنة ٣٤٤ - تذكرة الحفاظ ٣/ ٨٩٥.

(٥) المصدر السابق ٣/ ٨٩٥.

٥ - استمرار الخلاف فيها بين الطائفتين إلى زمن متأخر جداً.

ومن أغرب آثار هذه المحنة استمرار الحرب بين الطائفتين في كل جيل من أجيال هذه الأمة. وقد حكى الإمام ابن قيم الجوزية تواتر ذلك إلى زمانه فقال: والحرب واقعة بين هذين الفريقين من بعد موت أحمد إلى الآن . . » الخ [1]

وما من شك أن انشغال خير أمة أخرجت للناس باطلاقات لفظيَّة لاحقيقة لها في واقع الأمر. يقلِّلْ من هيبتها، ويُطْمِعُ فيها عدوها . . وقد بلغ من تصعيدهم لهذه المسألة أن عممَّوا امتحان الناس بها فتجاوزوا العلماء والمشايخ إلى الكهول والأحداث . . وكان الأولى بكل فريق أن يتثبت ويميز الحق عن الباطل في كل إطلاق ويقف على حقيقة الخلاف قبل أن يبتلوا الناس بأمر لم يتقنوا فهمه.

ولذا يقول ابن قتيبة: «وإنما اختلفوا في فرع لم يفهموه لغموضه ولطف معناه، فتعلق كل فريق منهم بشعبة منه، ولم يكن معهم آلة التمييز، ولافحص النظارين، ولاعلم أهل اللغة. . وكل من ادعى شيئاً، أو انتحل نحلة فهو يزعم أن الحق فيما ادعى، وفيما انتحل، خلا الواقف الشاك، فإنه يقر على نفسه بالخطأ، لأنه يعلم أن الحق في أحد الأمرين اللذين وقف بينهما، وأنه ليس على واحد منهما».

ويصور رحمه الله ابتلاءهم المستبصرين والشيوخ والأحداث فقال: «وقد بُلِيَ بالفريقين المستبصر المسترشد- أي الذي يريد الحق - وبإعانتهم ومحنتهم وإغلاظهم لمن خالفهم، وإكفاره وإكفار من شك في كفره، فإنه ربما ورد الشيخ المصر فقعد للحديث وهو من الأدب غفل، ومن التمييز ليس له من معاني العلم

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة ص ٤٤٠.

إلا تقادم سنه وأنه قد سمع ابن عيينة وأبا معاوية ويزيد بن هارون، وأشباههم فيبدأونه قبل الكتاب بالمحنة.

فالويل له إن تلعثم، أو تمكث، أو سعل، أو تنحنح، قبل أن يعطيهم الرضا، فيتكلم بغير علم، ويقول بغير فهم، فيتباعد من الله في المجلس الذي أمَّل أن يتقرب فيه منه! وإن كان ممن يعقد على مخالفتهم سام نفسه إظهار مايحبون، ليكتبوا عنه!

وإن رأو حدثاً مسترشداً، أو كهلاً متعلماً سألوه، فإن قال لهم: أنا أطلب حقيقة هذا الأمر، وأسأل عنه، ولم يصح لي شيء بعد، وإنما صدقهم عن نفسه، واعتذر بعذر الله يعلم صدقه، وهم يعلمون أن الله لم يكلّفه إذا لم يعلم إلا أن يسأل ويبحث ليعلم كذبوه وآذوه، وقالوا: خبيث فاهجروه ولا تقاعدوه!!... الخ»[1]

وابن قتيبة أحد من عاصر المحنة وحديثه عنها نقل للواقع.. ولاشك أن مثل هذه الأفعال والأقوال تخليط واضطراب، وعصبية.. يتنزه عن مثلها المحدثون الذين هم أهل العلم وحفظته.

وقد قال علي ابن المديني رحمه الله في حديث النبي صلى الله عليه وسلم «لاتزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لايضُرهم من خالفهم»[2]: هم أهل الحديث، والذين يتعاهدون مذاهب الرسول ويذبون عن العلم. لولاهم لم تجد عند المعتزلة والرافضة والجهمية وأهل الإرجاء شيئاً من السنن.[3]

فانظر كم خلّفت هذه الفتنه من آثار سيئة في صفوف صفوة الأمة، ولاشك أنه قد داخلهم وشرّدبهم شراذم من أهل البدع والأهواء، وأقاموا المسألة ولم يقعدوها.

---

(١) الإختلاف في اللفظ ص ٥١.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه بنحوه في كتاب الإعتصام باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: «لاتزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق.. الخ» ٨/ ١٨٩

(٣) شرف أصحاب الحديث ص ١٠.

تنبيـــــه

هذا مـااستطعت التـوصل إليـه من آثار لمسـألة اللفظ بين المحـدثين، ومع التوسع والاستقصاء قد تظهر آثار جديدة وأمثله أخرى . .

وإني إذ أنوه بذلك لأؤكـد أن هناك فـوارق واضـحة وفـواصل جليّـة ، بين المسائل الثلاث التي جرى حولها الخلاف وامتحن بسببـها الناس حول القرآن الكريم . مسألة القول بخلق القرآن، ومسألة التوقف في ذلك ، ومسألة اللفظ بالقرآن هل هو مخلوق أم لا؟

فالمسألة الأولى والتي قاد لواءها المعتزلة والجهميَّة هي أخطر المسائل وحالقة الدين والقائل بخلق القرآن كافر باجماع الأمة (١)

والمسألة الثانية أمر الواقفين في القرآن فلم يقولوا مخلوق ولاغير مخلوق فـهؤلاء شكاك في أمر لامـجال فـيه للشك لصراحة الآيات والأحـاديث فيـه . وهؤلاء ألحقهم بعض العلماء بالصنف الأول وترك آخرون الكتابة والرواية عنهم وبدَّعوهم .

والخلاف في هاتين المسألتين قائم بين طرفين متباينين : أهل السنة والجماعة ومن تابعـهم وأهل الأهواء من جـهـميـة ومعـتزلة، وقـد تلبس بمسألة الوقف في القرآن كثير من المحدثين .

أما المسألة الثالثة : وهي اللفظ بالقرآن فالخلاف فيها بين أهل الحديث الذين هم من أهل السنة والجماعة بل سادتهم . والحكم فيها مختلف عن السابقتين ولم يجرِ حكم التكفير فيها . . بل التجهيم لمن قال : لفظي بالقرآن مخلوق، والتبديع لمن قـال : لفظي بـالقرآن غـيـر مـخلوق . وقـد منع الأئمة الأعلام من الإطلاقين

(١) راجع في ذلك ماسبق في مبحث عقيدة الذهلي وحكمه على المخلوقية والواقفية ، واستعرض أقـوال أئمـة السلف في تكفيـرهم وذلك في كـتـاب شرح أصـول اعـتـقـاد أهل السنه للإمـام اللالكائي«٢/ ٢١٦ - ٣٦٩».

كليهما كما سبق. والصحيح فيها التفصيل في كل إطلاق، وتمييز الحق من الباطل فيه. ومن أجل عدم التمييز حصل اللبس والإشكال ثم العداوة والجرح.

وقد تعمَّدت ذكر هذا التنبيه لئلا يقع الخلط بين حكم وآثار تلك المسألتين التي امتحنت بها الأمة في صلب دينها. وبين حكم وآثار مسألة اللفظ هذه.

وعلى ماسبق ذكره فإني أنبه على خلط الشيخ عبدالفتاح أبو غدة [1]- بين ردود فعل العلماء والأئمة على من رمي أو أتهم بأيٍ من هذه المسائل.

فقد جمع موقف الذهلي وأبي زرعة وأبي حاتم من البخاري وتركهم إياه من أجل اللفظ مع موقف أحمد من علي ابن المديني، ويحيى بن معين، وأبي نصر التمار [2] لما أجابوا في محنة خلق القرآن تورية أو خوفاً من القتل، وضم إلى ذلك ترك الناس لحديث علي ابن أبي هاشم الليثي البغدادي* لما وقف في القرآن.

وكان الأولى تمييز فتنه خلق القرآن، عن الوقف فيه، عن اللفظ به. لأن الشيخ بعد أن ساق منشأ فتنة خلق القرآن عنون لأثرها في صفوف الرواة المحدثين، وكتب الجرح والتعديل. فجمع من جرحوا باللفظ مع الواقفين في القرآن مع الذين أجابوا في فتنة خلق القرآن. مع أن أساس حديثه عن ترك جماعة من المحدثين الرواية عن البخاري لمسألة اللفظ... ولاشك أن التلبس بشيء من

(١) في تعليقه الطويل وبيانه للمسألة مع أثرها في صفوف المحدثين، في حاشية كتاب قواعد في علوم الحديث للعلامة ظفر أحمد العثماني التهانوي ص ٣٦١ - ٣٨١.

(٢) حيث كان يتكلم في علي لما أجاب في المحنةولكنه إعتذر وتاب وأناب. تهذيب التهذيب ٧/ ٣١١، ويكره الكتابة عن يحيى وأبي نصر التمار لما أجابا. ميزان الاعتدال ٦/ ٨٤. وأبي نصر هو عبد الملك بن عبد العزيز بن عبد الملك بن ذكوان، التَمَّار الإمام الزاهد، قال أبو حاتم: ثقة يعد من الأبدال، كان يتاجر بالتمر، وقد علل الذهبي إجابة أبي نصر التمَّار في المحنة فقال: أجاب تقية وخوفاً من النكال، وهو ثقة بحاله ولله الحمد، توفي سنة ٢٢٨هـ وعمره ٩١سنة وكان قد عمي رحمه الله. الأنساب١/ ٤٧٧، السير١٠/ ٥٧١

(*) لم أجد ترجمته.

فتنتي الخلق والوقف أشد من التلبس بفتنة اللفظ، فوجب حينئذ التمييز وعدم إقحام مثل موقف الذهلي من البخاري، مع مواقف الإمام أحمد ممن أجاب في فتنتي الخلق والوقف. والله أعلم.

البـــاب الثالث

أثر الإمام الذهلي في الحديث وعلومه

وتحته تمهيد وخمسة فصول :

الفـصل الأول : أثر الإمـــام الذهلي في علوم رواة الحديث .

الفصل الثاني : أثر الإمـــام الذهلي في علوم رواية الحديث .

الفـصل الثالث : أثر الإمـام الذهلي في علوم الحـديث من حيث القبول والرد .

الفـصل الرابع : أثر الإمـــام الذهلي في علوم المتن والسند .

الفصل الخامس : أثر الإمـــام الذهلي في العلوم المشتركة بين المتن والسند .